



رمضان سنة ١٣٢٧

غرائب الغرب

حالة مصر

هبطت مصر وعهدي بها ليس بعيد غبت عنها أربعة عشر شهراً وكنت صرفت فيها أربع سنين أيام الحكم الاستبدادي في المملكة العثمانية فلم أر اليوم وأنا عابر سبيل أن أمكث فيها أقل من أربعة عشر يوماً قضيتها في مشاهدة من خلفتهم فيها من الأصدقاء الكثيرين. والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الإفريقية حوت ما في العواصم من ضروب الرقي والانحطاط مما تنفقه على غيرها طوعاً أو كرهاً ويأبى الناس من القاصية فيأخذونه عنها ويهتسون بتقليده وتأييده.

إن من ينظر إلى مصر نظراً سطحياً يأسف لها كثيراً ويعدها كترأ ضائعاً ودماً ضيعه أهله. ومن يعمق النظر في مواردها ومصادرها ويدرس مفاعيلها ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضي بما هو آت يدرك أن المستقبل المخبوء لمصر في حياتها الاجتماعية

والسياسة لا يقل عما أحرزته في حاضرها من المنافع المادية والأدبية إذا ظلت عناية أهلها متوفرة على التعليم والتربية وهم يفتنون سنة عن أخرى في تنقف ما ينفعهم من أنواع المعارف لقيام بناء مجدهم الجديد على أحسن نظام.

ليس في أقطار الشرق ولا في أقطار الغرب بند عرف تاريخه كنا عرف تاريخ مصر ولا بند مثله أبقي على آثاره الخالدة واحتفظ بتراته القديم فنفع العلم والعالم بما ادخره.

فقد قال لنا التاريخ أن عهد بعض ملانل فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية وأن مدنيته لا تقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة وأنه جاء زمن طويل على مدينة الإسكندرية أيام الروم كانت تفيض العلم النافع على العالم أجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة أيام الخلفاء وكما تفيض كليات أوروبا وأميركا على آسيا وأفريقية اليوم.

أتى على مصر دور المخطاط بعد دولة الفاطميين اشغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الشام وإن كانت لها الميزة أبداً في هذا الباب على الأقطار المجاورة فقد كانت على عهد الأيوبيين والجراكسة والمماليك على المخطاطها مورداً تسخي منه البلاد الأخرى وكانت العلوم الإسلامية والأدبية خاصة مما يحمل من أزهرها إلى شمالي أفريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك وسورية وغيرها. ولما جاء نابليون الأول ثم م علي الكبير دخلت فيها بواسطة علماء من الفرنسيين روح الحضارة الغربية وأساليب التعليم الأوروبية وأخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية بل بالبعثات السنية إلى أوروبا ليدرس النشء في كلياتها ثم يعودوا إلى مصر مم فينفعوها بما عندهم الله والبشر الرافي.

وما برحت هذه الإرساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على المناحي الغربية حتى جاء الخديوي إسماعيل وأسرف في ماها إسراف جنون وجهل فاضطرت إلى الاستدانة من المالين الأوربيين وأكثرهم انكليز وفرنسيين ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت انكلترا مدخلاً لها بحجة أن أرباب الأموال يوجسون خيفة على أموالهم ورأت من فرنسا غفلة أو تغافلاً فعملت وحدها على إطفاء الفتنة فصدقت عليها كلمة نابليون في قوله وقد أخرجته انكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين في القرن الماضي ألها لم تخرجنا منها إلا لتأخذها لنفسها في المستقبل.

دخلت انكلترا مصر لإطفاء الفتنة أولاً ثم للمحافظة على ترعة السويس التي أصبحت أكثر أسهناً لجماعة من أبنائها. والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الأقرب ومادة حياة دولة البحار. ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يعذر.

ولقد كان ميدان الإصلاح فيحاً أمام المحتلين لتوفر الأسباب الطبيعية لمصر وأن بلاداً لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تعب تربتها ولا تعاصى على الإنسان طبيعتها لأقرب البلاد إلى معالجة الإصلاح في مجاهلها ومعالمها.

ولما استتب الأمن في أنحاء القطر أقبل أرباب الأموال من الغربيين وغيرهم يتجرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية فكانت تلك الحركة نافعة في نهضة القطر الأخيرة نهضة اقتصادية كبرى حمدتها عليها بلاد كثيرة.

فمياً لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال أناس عملوا بإخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معاً. وكان عميدهم الأكبر لورد كرومر الذي أدار دفة السياسة المصرية أربعاً وعشرين سنة أرغى في خلالها عنان الحرية الفكرية

فهاجر إلى مصر كثيرون من المشاركة. عمل هذا وغيره من الأعمال النافعة ولكنه كان يحاول أن يقف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التي لا تمنح الحال إلا بإعطائها للمصريين وما عدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي فقد كان النوردي يقول لهم كل سنة تصريحاً وتلويحاً في تقاريره السنوية أنكم لا استعداد لكم معاشري المصريين لغير ذلك من الأعمال فهل نستتم ماضيكم أيام كنتم تماقون إلى السخرة سوقاً وتستعبدون استعباد العبيد والأرقاء أيام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على أن أنجاكم مما كنتم فيه فحالكم الآن أحسن من ماضيكم منة مرة فعليك أن تقنعوا بما حزنوه.

ولكن نهاء مصر لم يفهم معنى هذه السياسة وكان الفضل الأكبر للجرائد في تنبيه شعور الأمة المصرية إلى أن وراء ما هم مشتغولون به الآن مطلباً أسمى وأنفع فقاموا يسعون إليه سعيهم وهم على اختلاف في الطرق الموصلة إليه لا يختلفون في كون بنوعه لا يتأتى إلا من طريق التعليم والتربية فبذل أهل الاقتدار ما سمحت به نفوسهم من إنشاء الكليات في الأرياف والمدن حتى أسفرت النتيجة بعد بضعة سنين عن تكثير سواد القارئ والكتيب ثم رأوا أن الأمة لا ترقى إلا إذا كان فيها أفراد يحسنون تعليم الأمة بلفتها ما يلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا إلى إقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكان أكثره بالانكليزية من قبل ثم رأوا أنه إذا لم يكن لهم من أبنائهم من يعلم العلم العالي سبب ارتقاء الأمم لا يكون العلم إلا عقيماً ناقصاً فأنشأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية وهم اليوم ينظرونها لتكون بعد سنين على

مثال الجامعات الأوروبية تدرس علوم الجامعات الإفرنجية باللغة العربية وهي أول جامعة من هذا النوع لأمة لا يقل الناطقون بها على ستين مليوناً من البشر.

نعم إن الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الإصلاح على الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة الهندسة والزراعة وسائر المدارس الأميرية والخصوصية هي التي تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولا بد لهذا الأمر من آخر ولمساعيهم الحسنة من نتيجة إذا سلكت القوم سبيل التؤدة وطبقوا أعمالهم على قانون العقل الصحيح واستفادوا بتجارب الأمم السالفة وانصاع العامة للخاصة وحدهم ولم يبق الخيال للغوغاء وبذلك تصبح أسباب القوة المادية والمعنوية في بلادهم على مستوى ما هي عليه عند الأمم الحية حقيقة لا مجازاً.

لا جرم أن المصريين بما فيهم من الذكاء وما ورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقي المادي هم بمجموعهم أرقى من مجموع الشرقيين خل عنك اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون أبناء طبقتهم في الغرب وربما فاق الأتراك المصريين في الأمور السياسية والحربية.

ولا يعاب على مصر إلا فتور قلة أبنائها في منتصف الطريق في الأغلب وهذا الخلق يكاد يكون عاماً في القطر لا يقوى في التغلب عليه إلا التربية العقلية. وحذا يوم نرى فيه مصر تقبل على العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيك والمعادن مثلاً إقبالها على تعلم الحقوق مثلاً فقد ترى من ناشتهم زهاء خمسمائة طالب في كليات أوروبا وأميركا والقسم الأعظم منهم يدرسون الحقوق ليرشحوا منها إلى الوظائف لأنه وقر في النفوس أن فن

الخامسة أكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون خصوصاً وهو متوقف بعد العنم النظري على طلاقة لسان وفضل بيان والمصريون أكثر العرب حظاً من تينك المزيين. أصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من أوربا كما قال الخديوي إسماعيل ولكن أحبابها يريدون لها أن تكون كأوربا في صفاتها العالية وحضارتها الراقية حتى لا تخرج أملاكها بطيش الطاشين من أبنائها إلى أيدي الغريب فيعود المصري بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب في بنده وما أصعبها من حالة.

إن مسألة الراية التي تخفق على أمة لا تم بقدر ما تم في الحقيقة مسألة الأملاك إذ أنه مهما بنع من حيف أمة فاتحة أو مستعمرة لا تحدثها نفسها أن ترع من المالك منكه إلا برضاها. ومصر التي تتأذى اليوم بوطاة الرومي والطنياي والانكليزي وغيره لا تتقل بعض أملاكها منها إلا برضى أولئك الوارثين والمسرفين الذين لا يعرفون دخنهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه هي الفئة الصالة المصنة في هذا القطر الخبوع ومنها يخشى على مستقبله.

فبقلة عقول المستهترين أصبحت نحو تسعة أعشار الأقطان والأملاك في مصر لغرباء وعبها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مليون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقي على عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير.

إن ما نخشاه على مصر هو الإسراف الزائد وتقنيد الغربي على العمياء ولو كان لأهل وادي النيل شيء من الإمساك الخنود والاقتصاد المعقول إذا كانت حال مصر السعيدة أرقى مما هي اليوم. ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يدبرها والحكمة قائدها ورائدها وانتظر الفرص التي لا يزال الدهر يجباؤها للأفراد كما ييخل بها على الأمم لا بد أن

يتمتع يوماً بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل أمة حية في هذا الوجود.

مرسينيا

٧

في الساعة الرابعة بعد الظهر أقفعت بنا من الإسكندرية الباخرة ايكواتور (خط الاستواء) إحدى بواخر شركة الميساجري مارتيم الفرنسية فبنغنا ثغر مرسينيا أكبر مواني فرنسا على البحر المتوسط واخيط والمانش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طريقنا شيئاً يستحق الذكر سوى بعض سواحل إيطاليا وفرنسا وقد تجنبت عن بعد وكان نظرننا مختلف إليها بقدر بعدنا أو قربنا منها ودام البحر رهواً حتى إذا خرجنا من مضيق مينا أصبحنا وأصبحت سفيتنا على كبرها وطولها وعرضها ألعوبة العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الأربع إلا وقد أخذه الدوار أو كاد ولم نملك حواسنا إلا عند بنوغنا ساحل السلامة.

وقرة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصاناً ومحمولها ٣٨٤٨ طناً وتقطع في الساعة اثني عشر ميلاً وهي إحدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين مواني البحر الأبيض والبحر الأسود والبحر الأحمر وبحر الأدرياتيك وهذه الشركة التي جعلت رأس مالها خمسة وأربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الأولين في لأغلب. ومن موانينا التي تقف عليها بواخر الميساجري مارتيم خانيا وسلايك والأستانة وجناق قلعة وأزمير ومدانيا وفاتي ولارنكا ومرسين والإسكندرون واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت وبافا وحيفا ورودس والإسكندرية وطرابلس الغرب وحصون وطربزون وبور سعيد

والسويس ولولا أمثال هذه البواخر الفرنسية والنموية والروسية والإيطالية والانكليزية والألمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تصدر من بلادنا وترد إليها ولتعدر التقل إلا في السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمر أو في المركبات وبعض القطارات القليلة التي تربط أجزاء مملكتنا بعضها ببعض.

ولشركة المساجري أيضاً إثنان وعشرون باخرة تمخر العباب إلى الهند الصينية وتوابعها وخمس باواخر لخط الكوششين وست باواخر لخط أستراليا ونيوزيلندا الجديدة وخمس باواخر في المحيط الأطلسيكي (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندي وذلك ماعدا السفن الصغرى التي جعلتها في بعض الموانئ الكبرى. وأشغال الشركة متوسطة مع أن حكومة فرنسا تدفع إليها إعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما ينزمها.

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب أن البواخر الألمانية والانكليزية والطينية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسية وأن الراكب يجد راحته في تلك أكثر من هذه مع أن الأجور واحدة ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها إلى تخفيض الأجور في الصيف إلى نحو النصف لركاب الدرجة الأولى والثانية والثالثة وأخذت تحسم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القيمة المقررة فإذا كانوا أربعة فأكثر تحسم للنابغ فيما بعده خمسة وسبعين في المئة ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال أجوره.

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة أن اتفقت مع شركات البواخر الانكليزية والأميركية وشركات الكوك الحديدية على أن تنقل الركاب إلى الموانئ التي تختلف إليها

بواخرها وتنتك الشركات تقنهم على بواخرها بحيث يطوفون العالم ويحتازون من نصف الكرة الغربية إلى النصف الشرقي والأجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب إن أحب أحد الطرق التي يختارها في قطع البحور والبرور فالطريق الأولى عن موافي الصين واليابان وكندا ماراً بفانكوفر وهو يكنف في الدرجة الأولى ٣٢٨٨ فرنكاً والطريق الثانية أستراليا وفانكوفر ويكنف في الدرجة الأولى أيضاً ٣٥٧٥ والطريق الثالثة إلى أستراليا فضيق توريس فاليابان وفانكوفر وأجرها ٤٢٥٧ في الدرجة الأولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرانسيسكو وتكنف ٣٢٨٨ فرنكاً والطريق الخامسة إلى أستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرانسيسكو وتكنف ٤٢٥٧ فرنكاً في الأولى فيركب الراكب من مرسينا إلى هونغ كونغ على باخر شركة المساجري عن طريق السويس وجيبوتي أو عدن وكولومبو وسنغافورة وسايغون ومن هونغ كونغ إلى شنغاي إلى كوبي فيو كوهاما على باخر الشركة أو على باخر شركة الباسيفيك الكندية بحسب ما يختار الراكب ومن يوكوهاما إلى فانكوفر على باخر الشركة الكندية ومن هنا يركب القطار إلى كينك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون أو نيويورك ومن نيويورك إلى ليفربول أو سومتون على إحدى البواخر الانكليزية أو الأميركية أو النموية أو من نيويورك إلى الهافر على باخر الترانسلانتيك ومن الهافر بالسكة الحديدية إلى باريز.

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الأرض ولو قال قائل هذا لأحد أجدادنا الأقدمين وقال له أنني أريد السير نزهة على هذه الخطة لنسب إليه الجنون وقال إن ذلك لن يكون ولكن إذا عرف سر الأسفار في هذه الأعصار يقول سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار يفعل ما يشاء ويختار.

وبعد فلم يتسع لي الوقت لأدرس جميع معالم المدينة في مرسيليا لأني لم أصرف فيها إلا ثلاثة أيام قضيت أكثرها في الراحة ومن عناء السفر الذي طال عينا إحدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لما صادفته الباخرة في طريقها من الأنواء ولطاري طراً على آلتها في عرض البحر فأصنحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الإسكندرية ومرسيليا في خمسة أيام بلياليها ولا تقف قرب اليابسة. ومن البواخر الانكليزية ما يقطع المسافة بين بور سعيد ومرسيليا في أربعة أيام وهذه البواخر خاصة بالبريد الانكليزي تنقله من اوستراليا والهند إلى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يوماً لا تكاد تستريح في طريقها إلا بقدر ما تحمل زاداً ووقوداً وركاباً والمسافة المعتادة بين اوستراليا وانكلترا لا تجتازها الشركات المعتادة في أقل من سبعين يوماً.

قامت مرسيليا في منقطع وادي الرون الجميل فكانت جبهة الجمال الفرنسي بما فيها من الجبال والسهول وما أحرزته من مجد قديم وغني حديث وأن محيطها الذي لا تقل مساحتها عن مئة كيلومتر مربع لأحلى من العافية في بدن السقيم أو النظارة في حدود الجوّاري - كما يقول بديع الزمان - استغفر الله بل كاد يكون أجهل من الحور الذي تقرأوه في عيون المرسليات الدعج. ولعل جمال العيون في النساء هنا التي فاقت عيون البدويات الرعابيب انتقلت إليهن من أجدادهن العرب فقد قال ميشله المؤرخ أن أصل سكان مضائق الرون مختلط كثيراً ففيه العنصر السنّي واليوناني والعربي وحنيط من الطليان والغالب أن سكان جنوبي أوروبا يوصف نساؤهم بدعج العون وسواد الشعر كما يوصف الشاليات بزرقة العيون وشقرة الشعر.

وإلى اليوم يكثر في مرسى الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ ألفاً من السكان خمسهم من الطليان ويبدعهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الأجانب في فرنسا وكان في مقاطعة مرسى سنة ١٩٠٦: ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ أجنب وفيها ٧١٨ مدرسة وفي مقاطعتها ٧١٧ كيلومتراً من الخطوط الحديدية و١٦٣ كيلومتراً من الترم و٢٨٤ من الطرق الأهلية و٣٦٨٣ كيلومتراً من طرق العجلات الموصنة بين أقاليمها.

وأهم صناعاتها عمل الأقمشة وتحضير الأطعمة والمأكولات وصنع القرميد خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لا تختلف في الرقي عن زراعة عامة البلاد الفرنسية وفيها دور صناعة للأساطيل والبواخر التجارية ولا سيما دار صناعة الميساجري مارييم.

قال من كتبوا عن مرسى من المؤرخين أن تاريخها من أقدم التواريخ وهي أول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد إنشائها إلى القرن السادس قبل المسيح وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ ألف منزل منقسمة بين ألفي شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية ومن أحسن متهزاتها الكورنيش الذي انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التي دخلت مرفأها البالغ مطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧-١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ ألفاً وقدروا ما يدخل إليها ويخرج منها في اليوم بسبعة وأربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد.

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجنته. وجريدة التي مارسنيه (المرسى الصغير) أوسعها انتشاراً تطبع ١٨٠ ألفاً كل يوم وهو حجم الماتين والايكودي باري كما يطبع التي باريزيان (الباريزي الصغير) الذي يصدر في باريز مليوناً ومائتي ألف نسخة في اليوم

والثاني أكثر جرائد فرنسا انتشاراً. فكان لهذه الأسماء الصغيرة من حسن التوفيق ما لا يحالف الأعمال التي تبدأ بالألقاب الضخمة والأسماء الفخيمة.

زرت إدارة البقي مارسيليه فرأيت النظام مستحكماً في كل ما يتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والأربعين من عمرها وأقدم منها بل أقدم جرائد مرسيليا السيمافوردي مارسيل أنشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعيرة إلا أنها أقل انتشاراً. وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما إليها مثلاً فنو فرضنا أن ما يطبع من جرائد مرسيليا ومجملتها يينغ كل يوم مئوي نسخة لأصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على أقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد على مرسيليا وتباع في شوارعها بالألوف أيضاً.

ومن الأسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد واخجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والإيرانية لا يينغ بكيت قدر ما تطبع كل يوم جريدة البقي مارسيليه إحدى جرائد ولايات فرنسا. وعلى هذه النسبة فس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيين وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولا سيما في الأمور العقبية.

ليون

٨

ماذا يصف القلم من مدينة الفرنسيين وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الأقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت إلا إلى جانب القصور. نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل وشاهد مدينة فرنسا فقط لحوقل واسترجع وقال هذه

حضارة ليس لنا في وصفها مطمع ولو أتى المسعودي بقلبه وعينه لعجز عن الوصف والتسطير ولو جيء بأبن بطوطة لأب من رحته الطويلة لا يحسن إملأ ما رأى وسمع ولو قام ابن جبير لا عترف بقصور ذرعه وعدم نفاذ طبعه وقال إن هذا إلا حلم وخيال ونحن لا نسجل في رحلتنا إلا ما تقع علينا أبصارنا ويترامى إلى آذاننا وتمسه أيدينا.

وبعد فمأذا يصف القلم في ليون أجهالها الطبيعي أم الصناعي. معاملها الحربية أم مدارسها وكنيتها أم انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها أم غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها ومحازمها وحوانيثها وقائيلها وأنصافها وخطوطها الحديدية والكهربائية وجسورها الحديدية والحجرية وأرصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها وغربها العظمين الرون والسون النذين يقطعانها شطرين ويزيدان في بهجتها ما تقر به العين.

مأذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية في كونها عاصمة دين كنها هي عاصمة صناعة وعمل. وعلى جسر ليون مر الصليبيون في القرون الوسطى ذاهبين إلى المشرق لإنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين. نعم مأذا نعدد من ليون وبدائع صنع الإنسان فيها وما ضمت من معاهد قديمة وحديثة ومشاهد بهيجة وبالله ما أعجب معرض نموذج الأنسجة الذي حوى أربعين ألف نموذج ليس لها نظير في العالم وعرضت على أنظار أهل البلاد والسائحين يتفنون بالنظر إليها ويستدلون بما على تفنن يد الإنسان في كسوة الأبدان.

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعات بسرعة فإن البخار البري عوض عنها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية

١٤٠ قطاراً جاثية ذاهبة من أنحاء شتى ولا سيما من الشمال إلى الجنوب. والمسافة بين باريز ومرسينيا ٨٥٠ كيلومتراً ليس فيها شبر واحد لا أثر للنعمران فيه يقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة. وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسينيا ثغرها والحكومة اليوم شريعة بمد خط حديدي ثالث لسيار القطارات لأن الخطين الموجودين لا يتأتى أن يجري عليهما في كل بضع دقائق أكثر من قطار واحد مخافة أن يحدث اصطدام بين القطارات ويكلف الخط الجديد بين باريز ومرسينيا مئات الملايين من الفرنكات وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة وتأخذ كل جهة حظها من العمران.

لم تقف ليون عند حد الأعمال الصناعية والتجارية والمالية بأن كانت هي التي أسست مصرف الكريدي ليونيه مثلاً من أعظم مصارف العالم. بل لها حظ كبير من النهضة العلمية وأثر راسخ في الحضارة الفرنسية وناهيك بكنيتها التي تحوي فروع العلم ولا سيما الطبيعى والحقوق والطب والتجارة يختلف إليها ٢٥٠٠ طالب منهم الأجانب وفيهم نحو خمسين مصرياً أكثرهم ويدرسون الحقوق وقيل منهم الطب وأقل في التجارة والمصريون حديث عهدهم بترؤل ليون للتخرج في كنيستها وقد كثرت ورودهم عندها بعد أن ترك المسيو لامبر أحد أساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه فعيّنه حكومته في كلية ليون أستاذاً فكان من أثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له أن جذب عشرات منهم لتعلم في كنيستها وهو يشرف عليهم إشراف الأب على أولاده. وكانت مصر تعتمد في تنشئة أولادها من قبل على كليات الولايات الفرنسية ولا سيما كلية موبنيه وذلك

عنى عهد الخديوي إسماعيل لأنه كان يعتقد أن أهل موبليه أقل معاداة للسلوك وأبعد الفرنسيين عن التطرف.

قضيت في ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقي محمد لطفي أفندي جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقي الاجتماعي والتكافل الإنساني والذوق الفرنسي وفي مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيين لما يشهده السائح فيها من السكون والانقطاع إلى الأعمال الشريفة فلا يسفون كأكثر سكان العواصم في الأغلب للمكاسب الدنيئة أو يرضون بأن يكونوا عالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزانها بالوظائف والاستخدام.

وياما أبحر ساحة بئلكور (الفناء الجميل) يوم الأحد والرجال والنساء والأولاد غادون رائعون فيها لا تقرأ في وجوههم غير الأدب ولا في حركاتهم إلا التربية البيتية العالية والتشجيع بالنظام المدني المعقول حتى إذا جن الليل يختلف القوم إلى دور التمثيل وأماكن النهو والطرب وسماع الخطب والمحاضرات وهكذا لينهم كنهانهم عمل وراحة واستفادة وإفادة أخذوا يحظوا وافر من دنياهم ولم ينسوا تعهد آدابهم. فليون بند طيب أمين يسكنه المهذبون العامنون.

ولقد كنت كنما وقع نظري في ليون على شارع عظيم أو بناء جسيم فحدثني النفس بسورية فأقول متى يا ترى يكون فيها مثل ما في ليون على الأقل ولو أن عمران ليون وحدها وهي إحدى مدن فرنسا وما فيها من قوة مادية وأدبية وزعت على سورية من عريش مصر إلى الفرات ومن البحر المتوسط إلى أقصى بداية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سورية وهي في مساحتها نحو مساحة فرنسا كلها من حيث عمرانها أرقى مدن

المصورة ولكن الرزق لا يأتي بالتبني والوجود لا يتفع به إلا من يحسن استخدام ما فيه من القوى والعناصر.

تحية باريز

٩

سلام عليك مرضعة الحكمة. وربية الرخاء والنعنة. وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية. وحيمة المدنية الأصلية في الأقطار الغربية والشرقية. ومعنة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين. والضرب على أيدي الرؤساء والنبلاء والمالكين. أنت هذبت طابع البشر حتى غدوا يشعرون بالنطف والذوق وفائدة العنم والعمل. أنت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل تأليه فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود. وبألفت في إكرام العقول من أبنائك.

سلام عليك يا عشقة الإبداع والاختراع. وسابقة الأقران في مضار الانتفاع بما حوت الرباع والبقاع. استخدمت القوى المادية فأحدثت استخدامها. واشترت القوى العقلية فأبدعت في استثمارها. وأحييت حضارات الأمم السالفة. وأنشأت لك حضارات لا يزال يحسدك عليها أسبق الشعوب إلى الترقى منها تقلبت بك الحال. ويجدون في أوضاعك ما ليس يجدون في أوضاعهم من المرونة والجمال.

سلام عليك يا واضعة حقوق الإنسان وملقحة الأذهان بالتناغي بحب الأوطان والداعية إلى ثل عروش الجبارين والمخربين. أنت لم ترهيك تقاليد أبطال القرون الوسطى. والقدر بل أخذت بالأسباب والمسببات فقتلت من أراد قتلك. ووضعت من لم يهه رفعك. وكنت لناهضين من الناس خير مثال.

سلام عليك يا معهد المعارف والصناعات بما أنشأته من مجامعك العلمية ومدارسك الجامعة والكنية. ومجالسك العامة والخاصة. وجهياتك ونقاباتك لخدمة المدنية والإنسانية. ودور تمثيلك ومعاهد انسك وسماعك. ومتاحفك وحدائقك ومكاتبك ومعارضك. وكل ما أبدعته أفكار أبنائك وأيديهم ودل على مجد طريف وتالد وتاريخ على جبين الدهر خالد.

سلام عليك يا ملقنة الحق معنى الإخاء والحرية والمساواة ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات بين المختلفين في الموالد والديانات وقطعت التفاضل إلا بالأعمال الصالحة والأحلام الراجحة.

سلام عليك يا متشعبة بأفكار الحكماء ارتضيتها منهم قانوناً تجرّن عنه لسعادتك ولنن حاد بعض أبنائك بعض الشيء عنها فذلك لأن سياسة المنافع والمصالح قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح ولأن نظام بقاء الأنسب لا قنب له والتنازع في جهاد الحياة كثيراً ما يدعو الإنسان إلى ركوب ما تحظره الشرائع الوضعية والمساوية ولا سيما في هذه العصور التي يفصل فيها كل عمل على قلب الماديات وما ذلك إلا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا أن الكمال الآن محال ولعنه لا يفوقهم في مستقبل القرون والأجيال.

السلام على هذه العاصمة التي أحضت إلى الشرق فينا مضى فعلته حتى استمد منها النور فإن قننا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الأقرب أنا نأخذ عن المدينة الغربية فإنما نعي المدينة الفرنسية وبعبارة أصح المدينة التي تبعت أشعتها من باريز ومن طريقها وبلغتها وأسلوها تيسر لنا أن نستطلع طذع سائر مدنات الأرض.

سلام عليك عنيت فما أحسن العلم والعمل إذا اجتمعا. وما أحلى الإخلاص والشعور بالواجب.

سلام عليك سنتت لغرب سنة التضامن والتكافل. والعطف على البائسين والمساكين. والرفق بالضعفاء والعاجزين. والأخذ بأيدي المقهورين والعائرين. والانتصار لمظلومين من الآدميين مخصوصاً إذا كانوا من طينة أوربية.

سلام عليك أنت العاصمة التي تركت القصور الفخيمة التي عنرت بدماء الأمة مباحة للناس يدخلونها وكانت بورة المظالم والمغارم. ومنيعت الشهوات والأهواء. ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء إلى السناء من حيف الكبراء أيام كان يوقع منوكها وهو على سرير نومه توقيعاً واحداً يترك من الغد مئة ألف أسرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة ليعمر بما يجمع قصرأ له أو يدفعه خبوته صبرة واحدة فلنا أضناك الظنم والعت قتت تجعلين من تلك القصور الفاسقة متاحف عامة ومن دور الظلم والظلمات مجالس عدل وعزم ونور.

سلام عليك خلدت أعمال من خنفوا لك هذه المدينة وأقيمت تماثيلهم ونصبهم موقع الاحترام والإعظام وتوفرت على تكرير أسمائهم على المسامع كل يوم ألوف الألوف من المرات لتجعلهم مهرازاً لمن يأتي بعدهم من الأبناء والأحفاد.

سلام عليك يا بلد ديكارات وكونت وروسو وفولتير وديدرو وسيون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات أضراهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك فلم تنس أفضالهم عليك بعد مماتهم.

أنت إن خجنت من ذكرى الحروب الصليبية وديوان التفتيش الديني ومنحة القديس برتناسوس ومقتل الفيلسوف فيثاغورس وجنون نابليون وغير ذلك من الأعمال البربرية في عصور الظلمة فإن سكانك يفاخرون وحق لهم الفخر بأنهم أحفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الأعمال المشكورة في عصور النور ما ينسي الماضي إلا ألقه. إن الحسنات يذهبن السيئات.

السلام عليك باريز أجهل عواصم العالم وأغنى البلاد بيدائعها الطبيعية والصناعية وأجمعها لمرافق الراحة والرفاهية. لست أنت اليوم عاصمة مئة مليون من البشر أربعون في أرضك وستون في المستعمرات بل أنت بما فيك من المزايا عاصمة معظم الخافقين لأسباب هنالك وصفاتك ونعمتك ونعائتك وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق وسلامة الإبداع ووفرة العناء والباحثين والكتّاب والشاعرين والقصصيين. فكل شيء في باريز مبذول حتى لتعافى النفوس من أقصى ما يتصور الفكر من الفضيلة إلى آخر ما يجول في خاطر أو يحوم حوله خيال.

فباريز ولا وراء جنة أرضية جمع فيها موجدوها - استغفر الله - ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

باريز بعد الغروب

١٠

إن فاخرت باريز بمعارضها التي أقامتها في أوقات مختلفة لتلفت إليها الأنظار وتستفيد
الفخار والنصار فإن لها كل ليلة معارض لا تختلف عن السابقة إلا في كون البقعة التي
تقوم عليها هذه أوسع مجالاً وأكثر جمالاً.

يصرف الباريزيون أو معظمهم فئارهم في الاستعداد لينهم وكثيرون لا يعملون إلا في
الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم وادخار أحسن ما عندهم لما بعد الشفق فهم لا
يجعون الليل لباساً والنهار معاشاً كما هي عادة معظم الأمم بل أن الحركة عندهم تبدأ
قبل الظهر بطيئة ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس وتطنع بلدتها شمس وأقمار.

ترى المدينة في النهار عابسة مظلمة عنى كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة عنى
جانبيها بالأشجار غالباً وطرقها وأزقتها وساحاتها العامة وفي هذه الأماكن تشهد مجالي
الحسن والإحسان وما تفتت في إبداعه العوامل وتلطفت في روايته الأفكار والأنامل.

عنى تلك الأرصفة تناجي النفس رب النجوى قائنة النهم هل خلقت باريز من معدن
النطف والظرف لتكون مثلاً من جنة أرضية فخصصت أهلها بالاستمتاع بنعمة الجنال
حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته عنى الباريزيات وشطر وزعته عنى سائر بنات
حواء.

إن امتاز الفرنسيين بالإبداع في الصناعات فقد امتازوا أيضاً بنصرة الوجوه. وإلى باريز
تحمل هذه الأمة ولا سيما في فصل الشتاء أفضل ما عندها من مجالي الكمال والجمال أيام

تكون أم هذه القرى مقصد السائحين والمتجربين والطلالين والعالمين والسياسين والخطابين
وتغص دواوينها وإداراتها وتلتئم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية.

ويزيد الوجوه بمجة في باريز تفتن القوم في الأزياء وتغاليهم في التبرج والزينة تغالياً مهماً
تقدم عند غيرهم لا يزالون مصدره ومورده وأساتذته وسدنته. ومظاهر الأزياء تتجلى في
باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات وفي المركبات
والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الأرض وتحتها وفي دور
التشيل ومسارح النهو والطرب وحال الفرج والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق
ويزيدها فتنه للناظرين ما اعتاده الباريزيات إلا من عصم ربي من إبداء زينتهن لغير المحارم
أكثر من إبدائها لبعوطن وذوي قرباهن ورنين أصواتهن في الكلام رنيناً تحسبه من مزامير
داود وتستطيعه أكثر من تغريد العنديل وهناك الفتنة بعينها والفتنة أشد من القتل ونعوذ
به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين.

ولعل هذه الجمالي في الحرية المفرطة حمت الكثير من الغرباء على نزول باريز ليشهدوا فيها
مآلاً يشهدونه في غيرها وتربح منهم النيرات بالملايين والكرات عدلاً بما قاله أحد ملوك
بروسيا وقد قيل له ليس من اللائق أن تضرب ضريبة على محال الاطمئنان في الشوارع
فقال الغاية تبرر الوسيلة فما دامت الغاية الكسب فلا بأس من الاحتيال لئله ومن أجل
هذا تظهر نز بعد الغروب أقصى الفضيلة وأقصى الرذيلة والناس معها وما يختارون.

بعد الغروب تعمر في باريز أندية الخطابة والخاصرة والعلم وتلقى فيها من الفوائد ما يبلغ
الأذهان عفواً وصفواً ويفض معين البيان ويبدو حذق يد الإنسان ويسعى العالم إلى تعميم

الجاهل في ساعة ما تعب في إحضاره الأيام والأعوام فائدة الخطب والمحاضرات معروضة. ودروس الفضائل عامة مورودة.

بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم والشاعرين أشعارهم والمؤلفين مؤلفاتهم والمخترعين اختراعاتهم والصانعين كأن الأفكار لا تنطق من عقالها والأيدي لا تحقق أعمالها إلا عندما ترقد عيون البشر أو كأن الزهرة ربة الجمال لا تحب أن تملي على من هم أحوج الناس إلى طنعتها إلا من الليل ككوكب الزهرة لا يبدو في مطلع الأفلاك إلا مع الدجى. ولذا يحرص أهل باريز أن يجعلوها بعد غروب الشمس مجمع الأنس وريحانة النفس.

وكان الباريزيين وهم العارفون بتقسيم الأعمال عزَّ عليهم أن تمضي ساعة في بلدهم ينقطع فيها العاملون عن أعمالهم فخصوا النهار ببعض الصناعات والتجار والعلة والعاملات والليل بالمفكرين والمفكرات والمؤنسين والمؤنسات والمغنين والمغنيات والممثلين والممثلات. حتى لا تنقطع حركة ولا يقف دولاب عمل وكان بذلك الحظ الأوفر للغرباء فلا يدخل على الغريب مثل من تغير المشاهد ولا يفتأ من الفجر إلى الفجر إن أحب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتزود.

يقول الباريزيون أن بلدهم مبارك على الغريب أكثر منه عليهم وأهم مضطرون أن يواصلوا السير بالسرى ويكدحون الليل والنهار ولكن هذا قول من منك شيئاً فزهد فيه والروح تروح إلى التقل أما الشرقي الذي يرى أهل باريز ويغبطهم على أكثر ما دبروه لراحته ورفاهيتهم فإنه يعجب لمن يسألكهم زمناً كيف ترضى نفسه أن يختار عن باريز بنداً كما يعجب لأهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة أضعاف أضعاف ما يأسف

غير هم عنها ومن قال بأن دواعي الراحة تطيل حبال الآجال يستعظم على أهل باريز لم
لم يعثروا أكثر من عامة الخلق وعندهم النعيم المقيم والخير العيم.

الرسالة العذراء

في موازين البلاغة وأدوات الكتابة كتب بها أبو اليسر إبراهيم بن محمد بن المدبر

بسم الله الرحمن الرحيم

فتى اله بالحكمة ذهنك، وشرح بها صدرك وأنطق بالحق لسانك، وشرف به بيانك، وصل
إلي كتابك العجيب الذي استفهني فيه بمجموع كنسك جوامع أسباب البلاغة،
واستكشفتني عن غوامض آداب أدوات الكتابة، سألتني أن أقف بك على وزن عذوبة
اللفظ وحلاوته، وحدود فخامة المعنى وجزالته، ورشاقة نظم الكتاب ومشاكلته سرده،
وحسن افتتاحه وختمه، وانتهاء فصوله، واعتدال وصوله وسلامتهما من الزلل، وبعدهما
من الخطل، ومتى يكون الكاتب مستحقاً اسم الكتابة، والبلغ مسئلاً له معاني البلاغة، في
إشارته، واستعارته، وإلى أي أدواته هو أحوج، وبأي آلاته هو أعزل إذا حصص الحق.
ودعي إلى السبق، وفهسته وأنا راسم لك أيديك الله من ذلك ما يجمع أكثر شرائطك،
ويعبر عن جملة سؤالك، وإن طولت في الكتاب وعرضت وأطنبت في الوصف وأسهرت،
ومستقص على نفسي في الجواب على قاصر استقصائك في السؤال، وإن أخل به التيات
الحال، ومكون الحركة، وفتور النشاط، وانتشار الروية، وتقسيم الفكر، واشتراك
القلب، والله المستعان.

اعلم أيديك الله إن أدوات ديوان جمع الحاسن وآلات المكارم طاعة منقادة لهذه الصناعة
التي خطبتها وتالية تابعة لها وغير خارجة إلى حجد أحكامها ولا دافعة لما يلزمها الإقرار به

لها أضراراً منها إليها وعجزاً عنها فإن تقاضت نفسك عليها ونازعتك همتك إلى طلبها
فاتخذ البرهان دليلاً شاهداً والحق إماماً قائداً يقرب مسافة ارتيادك ويسهل عليك سبل
مطالبها واستوهمب الله توفيقاً تستجح به مطالبك، واستنجد رشداً يقبل إليك بوجه
مذاهبتك، فاقصد في ارتيادك، وتأمل الصواب في قولك وفعلك، ولا تكن إلى جحود
قصد السابق بالنجاح ولا تخرج إلى إهمال حق المصيب بالمعاندة والإنكار ولا تسخف
بالحكمة ولا تصغرها حيث وجدتها فترحل نافرة عن مواطنها من قلبك وتظعن شاردة عن
مكاتها من بالك، وتتغنى بعد العبارة من قلبك آثارها وتنطس بعد الوضوح أعلامها
واعلم أن الاكتساب بالصنم والتكلف وطول الاختلاف إلى العناء ومدارسة كتب
الحكماء فإن أردت خوض بحار البلاغة وطلبت أدوات الفصاحة فتصفح من رسائل
المقدمين ما تعتمد عليه ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه في تلقيح ذهنك، واستنجاح
بلاغتك، ومن نوادر كلام النامى ما تسعين به ومن الأشعار والأخبار والسير والأسماء ما
يتسع به منطقك، ويعذب به لسانك ويطول به قننك، وانظر في كتب المقامات والخطب
ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم
وتوقيعاتهم وسيرهم ومكائدهم في حروبهم بعد أن تتوسط في علم النحو والتصريف
والنقطة والوثائق والشروط ككتب السجلات والأمانات فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب
وتظهر في نزع أي القرآن في مواضعها واجتلاب الأمثال في أماكنها واختراع الألفاظ
الجزلة وقرض الشعر الجيد وعلم العروض، فإن تضمين المثل السائر والبيت الغدير مما
يزين كتابتك ما لم تخاطب خفيفة أو منكأً جنيل القدر فإن اجتلاب الشعر في كتب
الحنفاء والجلنة والرؤساء عيب واستهجان للكتب إلا أن يكون الكاتب هو القارض

لنشعر والصانع له فإن ذلك مما يزيد في أهتته ويدل على براعته، وإن شذوت من هذه العلوم ما لا يشغلك محله، وتقتب من هذه الفنون ما تسعين به على إبطالة قنك وتقوم أود بيانك.

بعد أن يكون الكاتب صحيح القريحة، حلو الشئائل، عذب الألفاظ، دقيق الفهم حسن القامة بعيداً عن القدماء خفيف الروح، حاذق الحس، محكاً بالتجربة، عالماً بحلال الكتاب والسنة وحراميهما، وبالمناوك وسيرها وأيامها، وبالدهور في تقنيها وتداولها، مع براعة الأدب، وتأليف الأوصاف، ومشاكلة الاستعارة، وحسن الإشارة وشرح المعنى بمثل من القول حتى تنصب صوراً منطقية تعرب عن أنفسها، وتدل على أعيانها، لأن الحكماء قد شرطوا في صفات الكتاب طول القامة، وصغر الهامة، وخفة اللهازم، وكثافة النحية، وصدق الحس، ولطف المذهب، وحلاوة الشئائل وملاحة الزي حتى قال بعض المهالبة لولده: تزويوا بزي الكتاب فإن فيهم أدب المناوك وتواضع السوقة.

وخاطب كلاً على قدر أهتته، وجلالته، وعنده وارتفاعه، وتفطنه وانتباهه، واجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام فأربعة منها للطبقة العلوية وأربعة دونهما ولكل طبقة منها درجة ولكل قسمة حظ لا يتسع لنكات البليغ أن يقصر بأهلها عنها، ويقنب معناها إلى غيرها فالطبقة العليا الخلافة التي أعلى الله شأنها عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسل، والطبقة الثانية الوزراء والكتاب الذي يخاطبون الخلفاء

بعقولهم وألسنتهم، ويوتقون الفتوق بآرائهم ويتجسئون بآدابهم الثالثة أمراء ثغورهم، وقواد جيوشهم، يخاطب كل امرئ منهم على قدره وبما حمل من أعباء أمورهم، وجلال

أعمالهم، الطبقة الرابعة القضاة فإنهم وإن كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء فعلمهم
أبهة السلطنة وهيبة الأمراء.

أما الطبقات الأربع الأخرى فالملوك الذين أوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب وأفضاهم
تفضيلهم فيها، والثانية وزراءهم وكتابهم وأتباعهم الذي بهم تفرع أبوابهم وبعنايتهم
تستباح أموالهم والثالثة هم العلماء الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم وعنو
درجة أئمة، الرابعة لأهل القدر والجلالة والظرف والخلوة والعلم والأدب فإنهم
يضطرونك بمدة أذهانهم وشدة تمييزهم وانتقادهم إلى الاستقصاء على نفسك في
مكاتبتهم، واستغنيا عن الترتيب للتجار والسوقة والعوام رتبة لاستغنائهم بتجارهم عن
هذه الآلات واشتغالهم بمصالحهم عن هذه الأدوات ولكل طبقة من هذه الطبقات معان
ومذاهب يجب عليك أن تراعيها في مراسلتك إليهم في كتبك وتزن كلامك في مخاطبتهم
بميزانه وتعطيه قسسه وتوفيه نصيه فإنك متى أضعت ذلك لم آمن بك أن تعدل بهم غير
طريقهم وتجري شعاع بلاعتك في غير مجراه وتنظم جوهر كلامك في غير منك فلا يفيد
المعنى الجزل ما لم تلبسه لفظاً جزلاً لائقاً بمن كاتبته ومشاهداً لمن راسنته، وإن الباسك
المعنى وإن شرف وصلح لفظاً مختلفاً عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عادتهم فهجين للنسعى
وإخلال بقدره وظلم لحق المكتوب إليه ونقص مما يجب له كما أن في امتناع تعارفهم وما
انتشرت به عادتهم وجرت به سنتهم وضعاً لقدرهم وخروجاً من حقوقهم، وبنوعاً إلى
غير غاية مرادهم وإيقاظاً لحجة أدبهم ضمن الألفاظ المرغوب عنها والصدور المستوحش
منها في كتب السادات والأمراء والملوك على اتفاق المعاني مثل أبقاك الله طويلاً وعرك
منياً وإن كنا نعلم أنه لا فرقان بين قولهم أطل الله بقاءك وبين قولهم أبقاك الله طويلاً

ولكنهم جعلوا هذا أرجح وزناً وأنبه قدراً في مخاطبة المنوك كما أنهم جعلوا أكرمك الله وأبقاك أحسن منزلة في كتب الظرفاء والأدباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتماله أن يكون فداء من الخير كما يكون فداءً له من الشر ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقاص فداك أبي وأمي لكرهت أن يكتب بها أحد على أن كتاب العكر وعوامهم قد أولعوا بهذه النغمة حتى استعنوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجيراًهم في مخاطبة الشريف والوضيع والصغير والكبير ولذلك قال محمود الوراق:

كل من حل سر من را من الناس ومن يصاحب الأملاك

لو رأى الكلب مائلاً في طريق ... قال للكلب يا جعلت فداك

وكذلك لم يميزوا أن يكتبوا بمثل أبقاك الله وأمتع بك إلا إلى الحرمة والأهل والتابع والمنقطع إليك وأما في كتب الإخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أحلت عما عهدت من أدبك ... أم نلت منكاً فتهت في كتبك

أم هل ترى أن في التواضع للأخ ... ولمن نقصاً عليك في حبك

أتعبت كيفك في مكاتبي ... حبك مما يزيد في تعبك

إن جفاء كتاب ذي أدب ... يكتب في صدره وأمتع بك

فكتب إليه محمد بن عبد الملك:

أنكرت شيئاً فلست فاعله ... فلن تراه بخط في كتبك

فأعف لتلك النفوس عن رجل ... يعيش حتى الممات في أدبك

كف أخون الإخاء بالعلي ... وكل شيء أنال من سبك
إن يك جهلاً أتاك من قنبي ... فقد بفضل عني في أدبك

وأما صدور السلف كانت من فلان بن فلان إلى فلان كذلك جرت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العلاء بن الحضرمي وإلى أقيال اليمن وإلى كسرى وقبصر وكتب أصحابه والتابعين كذلك حتى استخلص الكتاب هذه المخادئات من بدائع الصدور واستبطوا لطيف الكلام ورتبوا لكل رتبةً وجروا على تلك السنة الماضية إلى عصرنا هذا في كتب الخلفاء والأمراء وثبتوا على ذلك المهاج في كتب الفتوحات والأمانات والسجلات ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكتاب أن لا يتجاوز به عنه ولا يقصر به دونه، وقد رأيتهم عابوا الأخص حين خاطب المنوك بمخاطبة العوام في قوله:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق الحديث يقول ما لا يفعل

فهذا معنى صحيح في المدح ولكنهم أجلوا أقدار المنوك أن يمدحوا بما يمدح به العوام لأن صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان مدحاً فهو واجب على كل والمنوك لا يمدحون بالفروض الواجبة وإنما يحسن مدحهم بالنوافل لأن المادح لو قال لبعض المنوك إنك لا تزي بحيلة جارك وإنك لا تخون ما استودعت وإنك تصدق في وعدك وتفي بعهديك كان قد أثنى بما يجب ولكنه لم يصل بشائعه إلى مقصد وقال ما لا يستحسن مثله في المنوك.

ونحن نعلم أن كل تولى من أمور المؤمنين شيئاً فهو أمير المؤمنين غير أنهم لم يطنقوا هذه اللفظة إلا للخلفاء خاصة ونعلم أن الكيس هو العقل إذا عوا به ضد الحق ولكنك لو وصفت رجلاً فقلت: إن فلاناً لعاقِل كنت قد مدحته عند الناس ولو قلت أنه كيس كنت قد قصرت في وصفه وقصرت به عن قدره إلا عند أهل العلم باللفظة لأن العامة لا

تلتفت إلى معنى الكلمة إلا إلى حيث جرت منها العادة في استعمالها في الظاهر مع الحدائث والعزة وخساسة القدر وصغر السن فقد روينا عن علي رضي الله عنه أنه تبجح بالكيس حين بنى الكوفة وقال:

أما ترائي كيساً مكيساً ... بنيت بعد نافع مخيساً ... حصناً حصيناً وأميراً كيساً
وقال آخر: ما يصنع الأحمق المرزوق بالكيس ونعلم أن الصلوة وحي غير أقم قد حرموها إلا على الأنبياء كذلك روي عن ابن عباس (رضه) وسمع سعد بن أبي وقاص أخاً له ينبي ويقول: ياذا العارج فقال نحن نعلم أنه ذو المعارج ولكن ليس كذلك كنا نلبي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كنا نقول: لبيك اللهم لبيك وكان أبو إبراهيم المزني قال في بعض ما طالبه به داود بن عني خلف الأصمهاقي فقال: وإن قال كذا فقد خرج من الملة والحمد لله فانتقد عليه ذلك داود وقال: تحمد الله علي أن يخرج مسلماً من الإسلام هذا موضع استرجاع ولنحمد مكان ينيق به ونحن نقول على المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون.

فامتثل هذه الرسوم والذاهب وأجر على آدابهم فنكل رسوم امتثلوها وتحفظ في صدور كتبك وفصولها وافتتاحها وخاتمها وضع كل معنى في موضع ينيق به وتخبر لكل لفظة معنى يشاكلها وليكن ما تختتم به فصولك في موضع ذكر الشكوى بمثل والله المسحون وحسبنا الله ونعم الوكيل، وفي موضع ذكر النبوى نسأل الله دفع الخذور ونسأل الله صرف السوء وفي موضع الذكر المصيبة بمثل إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي موضع ذكر النعم بمثل والحمد لله خالصاً والشكر لله واجباً، فإنها مواضع ينبغي للكاتب تفقدها فإنما يكون كاتباً إذا وضع كل معنى في موضعه وعنى كل لفظة على طبقها من المعنى فلا

يجعل أول ما ينبغي له أن يكتب في آخر كتابه في أوله ولا أوله في آخره فإني سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول: لا ينبغي للكاتب أن يكون كاتباً حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر أول كتابه ولا يقدم آخره.

واعلم أنه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آي القرآن من الإيصال والحذف ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن أقواماً فصحاء ففهموا عنه جل ثناؤه أمره ونهيته ومراده والرسائل إنما يخاطب بها قوم دخلاء على النغة لا علم لهم بنسب العرب وكذلك ينبغي للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترك والمعنى المتبسر فإنه إن ذهب على مثل قوله تعالى وأسأل القرية وأسأل الغير بل مكر الليل والنهار احتاج أن يبين بل مكرهم بالليل والنهار ومثله في القرآن كثير.

ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر لأن الشعر موضع اضطراب فاغترفوا فيه الإغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير والإضمار في موضع الإظهار فمن الحذف قول الخطيئة من صنع سدام يريد سليمان بن داود وكقول الآخر: والشيخ عثمان أبو عفان وكقول الآخر:

وسائلة بثعنة بن سير ... وقد عنقت بثعنة العنوق

أراد ابن سيار وكقول النابغة: ونسج سليم كل قضاء زائل يريد سليمان وكذلك ينبغي في الرسائل أن لا يصغر الاسم موضع التعظيم وإن كان ذلك جائزاً على مثل قولهم دويهة وجذيل وعريق. وما لا يجوز في الرسائل كنت إياك وأعني إياك وإساءة النظم في التأليف في الشعر كثير وتكون الكلمة بشعة حتى إذا وضعت وقرنت مع أخواتها حسن حالها وراقت كقول الحسن بن هاني:

ذو حضر أفنت من كد القبل والكد كذمة قلقة لاسيما في الرقيق والغزل والنشيب غير
أنها لما وقعت في موضعها حسنت كما أن اللفظة العذبة إذا لم توضع موضعها نفرت قال:
رأت عارضا جونا فقامت غريرة ... بمسحاتها قبل الظلام تبادره

فأوقع الجلف الجاني هذه اللفظة غير موقعها وظلها إذ جعلها في غير مكانها لأن المساحي
لا تكون ولا تصلح للغرائر وأين كان عن قول الشاعر:

غرائر ما حدثن يهديهن آنسة ... فما فوقه منهن غير غرائر

حديث لو أن العصم تدعى به أتت ... ودون يد الفحشاء حد البواتر

فتخير من الألفاظ أرجحها وزناً، وأجزلها معنى، وأليقها في مكانها، وليكن في صدر
كتابك دليل واضح على مرادك وافتتاح كلامك برهان شاهد على مقصدك حيثما
جريت فيه من فنون العلم ونزعت نحوه من مذاهب الخطب والبلاغات فإن ذلك أجزل
لمعناك وأحسن لا تساق كلامك ولا تطين صدر كلامك إطالة تخرجه من حده، ولا
تقصر به عن حقه، ولو صور اللفظ وكان له حد لوقفك عليه غير أقم في الجملة كرهوا
أن يزدوا سطور كتب الملوك على سطرين وهذه إشارة لا تعبر إلى عن الجملة من
المقصود إليه لأن الأسطر غير محدودة.

واعلم أن أول ما ينبغي لك أن تصلح آلتك التي لا بد لك منها وأدواتك التي لا تتم
صناعتك إلا بها وهي دواتك فابدأ بعبارتها وإصلاحها وتخبر لما ليقة نقية من الشعر
والودح لتلا يخرج على حرف قلبك ما يفسد كتابك ويشغلك بتخفيفه وخذ من المداد
الفارسي خمسة دراهم ومن الصمغ العربي درهماً وعقصةً مسحوقاً نصف درهم ورماد
القرطاس المحرق درهمين ثم تحقها وتغربلها وتجمعها ببياض البيض ثم بنلقها واجعلها في

الظل فإذا احتجبت إليها أخذت منها مقدار حاجتك فكسرتة وحشوت به دواتك وإذا
نقعت في ماء الملق حتى ينحل ويذوب ويختصر ثم أمددت من مائه دواتك كان أجود
وأبقى ثم اختر بعد ذلك من أنابيب القلم الذي يصلح لكتابة القراطيس أقله عقدة
وأكتفه لحماً واجلبه قشراً واعدله استواءً وتجنب الأقلام الفارسية ما استطعت فإنها ما
تصلح إلا للكواعد والرقوق.

واجعل قلمك براية حادة فإن تعثر يد الكاتب وقت قطع القراطيس ناقص مروءته ومحل
بظرفه وإن قدرت أن لا تقطع القراطيس إذا فرغت من كتابك إلا بخروطم قلمك فافعل
فإن ذلك أكمل لمروءتك وأبدع لظرفك وقطعك.

واسعمل ليري القلم سكيناً طواويسياً ملق الحد وميض الطرف فيكون ذلك عوناً لك
عنى بري أقلامك فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس ولئن قيل كأنه الرمح
الرديني فقد قال الكاتب كأنه القلم البحري، وتفقد الأنبوبة قبل بريكها لئلا تجعلها
منكوسة وابرها من ناحية نبات القصة وأرهف ما قدرت جانبي قلمك ليود ما انتشر من
المداد ولا تطل شقه فإن القلم لا يمج المداد من شقه إلا مقدار ما احتضنت شتاه فارفع
شتيه ليجمع لك حواشي تحضيره وإما قط القلم فعلى قدر القلم الذي يتعاطاه الكاتب
من الخط غير أن المسهل لا يكاد يتسلسل إلا بالقلم المربع القط كما أن كتب الملوك
والسجلات لا تحسن إلا بالقلم الخرف الكوفي وأما قلم اللازورد فهو المعتمد عليه
والمقصود إليه في الثواب والمهات.

ورأيت كثيراً من الكتاب يختارون قلم النرجس لتجده وتجانسه ومن اللازورد أبسط منه
وأقوم حروفاً وأما الموشع والمولع والمليج والمنسم والمهم فعلى قدر رشاقة خط الكاتب

وحلاوة قلته وأما حسن الخط فلا حد له قال علي بن زبير النصراني الكاتب أعنك
الخط في كلمة واحدة لا تكتب حرفاً حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف المبدوء به
وتجعل في نفسك أنك لا تكتب غيره حتى لا تعجل عنه إلى غيره، وإياك والنقط والشكل
في كتابك إلا أن تمر بالحرف المعضل الذي تعلم أن المكتوب إليه يعجز عن استخراج
فإن يشكل علي الحرف أحب إلي من أن يعاب بالنقط والأعجام، وقال المأمون لكتابه
إياي والثونيز في كتبكم يعني النقط ولذلك قال ابن هاني:

لم ترض بالأعجام حين كتبته ... حتى كتبت السب بالأعراب

ولا تغفل الصلاة على النبي علي الصلاة والسلام فقد قال أبو العناء أن بني أمية هم
الذين كانوا أمروا كتابهم فطرحوا ذلك من كتبهم فجرت عادة الكتاب إلى يومنا هذا
عني ما سنوه، وقد قال عليه الصلاة والسلام لا تجعلوني كقدح الراكب ولكن اجعلوني
في أول الدعاء وأوسطه وآخره صلى الله عليه وعلى آله وسلم أولاً وأوسط وأخراً.
وأحب أن تجعل بدل الإشارة التراب فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال أتربوا كتبكم
فإنه أنجح حاجة ولا تدع التاريخ فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقرها وبعدها وانظر إلى ما
مضى من الشهر وما بقي منه فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قلت هكذا ليلة
مضت من شهر كذا وإن كان الباقي أقل من النصف قلت لكذا أيضاً بقيت وقد قال
بعض الكتاب إن الماضي من الشهر إن تحصيه والباقي لا تحصيه لأنك لا تدري أيتم
الشهر أو ينقص وليس هذا بشيء لأن تاريخ الكتاب ليس من الأحكام في شيء وما على
الكاتب أن يكتب إلا بما ظهر وتبين لا بما يظن.

ولا تجعل سحرة كتبك غليظة إلا في العهود والسجلات التي تحتاج إلى خواتمها وطوايعها
 فإن محمد بن عيسى الكاتب كاتب آل طاهر أخبر عنهم أن عبد الله بن طاهر كتب إلى
 العراق في أشخاص كاتب كان كتب إليه فكتب وغلظ سحرة كتابه فرد الكتاب إليه
 فقدم عليه راجياً لبره وجائزته فقال عبد الله بن طاهر إن كان معك مسحرة فاقطع خزم
 كتابك وإنه رف ورائك وكذلك لا تعظم الطينة فني المثل من عظم الطينة فإنه مظلوم
 ولا تطعمها إلا بعد عنوانها فإن ذلك مراد بهم وقد يجب عينك عنم الصنق القراطيس
 ومحوها ولم أر شيئاً في إلصاقها ألطف من أن ينقع الصنع العربي في الماء ساعة حتى يذوب
 ثم يلصق به وكذلك ماء الكثيرة والنشاستج ثم تطويه طياً رقيقاً وتجعله في منديل نظيف
 ويرفع تحت وسادة حتى يجف وأما محوها فعلى قدر لطف الكاتب وتأنيه غير أنه ينبغي له
 أن لا يلقط السواد من القراطيس إلا بمثل الشع المسخن والنبان المضغ وما أشبهها
 ثم يكون لقطه رويداً رويداً كما لقط جانباً حوله إلى الجانب الآخر

وأما قراءة الكتب المختومة والتلطف لنقص خواتمها فبما لا نذكره خوفاً من سفيه.

وأما تصنيع الأسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب إليه فقيه أدب وقد تعلقت العامة بالقلمي
 والأصمهاقي فيجب أن يبدل الحروف تبديلاً يخفي وألطف من ذلك أن تأخذ لبناً طيباً
 فكتب به في قراطيس فيذر المكتوب إليه عليه رماداً حاراً من رماد القراطيس فإنه يظهر
 وأن كتب بماء الزاج وذر عليه العفص المدقوق بمجاز أو بماء العفص وذر عليه شيئاً من
 الزاج أو ينقع شيئاً من وشق ثم تكتب به ثم تثر عليه الرماد فإنه يظهر وإن أحببت لا
 يقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فاكبه بمرارة السحفاة وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء
 كتاب فزن النقط قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرضت والكنته بعبارة إذا

سخت فربما مرّ بك موضع يكون مخرج الكلام إذا حسب أنا فاعل أحسن من أنا أفعل واستفعلت أحنى من فعلت.

وأدر الألفاظ في أماكنها وأعرضها على معانيها وقبها على جميع وجوهها حتى تقع موقعها ولا تجعلها قلقة نافرة فتى صارت كذلك هجنت الموضع الذي أردت تحميمه وأعلم أن الألفاظ في أماكنها كترقيق الثوب الذي إذا لم تتشابه رقاعه تغير حسنه قال الشاعر:

إن الجديد إذا ما زيد في خلق... تبين الناس أن الثوب مرقوع

وارتصد لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فجد ما يمتع عينك بالكد والتكف لأن سماحة النفس بمكنونها وجود الأذهان بمخزونها إغما هو مع الشهوة المفرطة في الشر واثبة الغالبة فيه أو الغضب الباعث منه ذلك، قيل لبعضهم لم لا تقول الشعر قال: كيف أقوله وأنا لا أغضب ولا أطرب، وهذا كنه إن جريت من البلاغة على عرق وظهرت منها على حظ فأما إن كانت غير مناسبة لطبعك ولا واقعة شهوتك عليها فلا تنضي مطيتك في التماسها ولا تعب بدنك في ابتغائها وأصرف عنانك عنها ولا تطمع فيها باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم فإن ذلك غير مثير لك ولا مجد عينك ومن كان مرجعها فيها إلى اغتصاب ألفاظ من تقدم والاستضاءة بكوكب من سبقه وسحب ذيل حنة غيره ولم يكن معه أداة تولد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه الكلام الحر والمعنى الجزل فلم يكن من الصناعة في غير ولا نفي.

عنى أن كلام العظماء المطبوعين ودرس رسائل الثقلين على كل حال مما يفتق النسان ويوسع المنطق ويشحذ الطبع ويستثير كوامنه أن كانت فيه سجية قال العتابي: ما رأينا

فإنما تصرفنا فيه من فنون العلم وجرينا فيه من صنوف الآداب شيئاً أصعب مروءاً ولا أوعر مسكاً ولا أدل على نقص الرجال ورجاحتهم وأصالة الرأي وحسن التمييز منه واختياره من الصناعة التي خطبتها والمعنى الذي طنبه وليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ وقصدك بها إلى موضعها لأن النقطة تكون أخت النقطة وقسيبتها في الفصاحة والحسن ولا يحسن في مكان غيرها وبتنجز هذه المعاني ومناسبة طبائع جهابذتها ومشاكلتها أرواحهم جعلوا الكتابة نسباً وقرابة وأوجبوا على أهلها حفظها.

سهل بن وهب: الكتابة نفس واحدة تجزأت في أبدان مفترقة ومن لم يعرف فضلها وجهل أهلها وتعدى بهم رتبهم التي وصفهم الله بها فإنه ليس من الإنسانية في شيء. قالت البرامكة: رسائل المرء في كنه دليل على عقده وشاهد على غيبه قال الشاعر:

وتكرو دا المرء في لحظ عينه ... وتعرف عقل المرء حين تكاتبه

آخر:

وشعر الفتى يدي غريزة طبعه ... وبالكاتب يبدو عقده وبلاغته

الشعبي: يعرف عقل الرجل إذا كتب وأجاب، العجبي: عقول الناس مدونة في كتبهم، ابن المقفع: كلام الرجل واقد عقده، وشبهت الحكماء المعاني بالغواني والألفاظ بالمعارض فإذا كسا الكاتب البليغ المعنى الجزل لفظاً رائعاً وأعاره مخرجاً سهلاً كان لنقلب أحنى ولنصدر أسمى ولكنه بقي عليه أن ينظمه في سنكه مع شقائقه كالنؤلؤ المشور الذي يتولى نظمه الخاذق والجوهري العالم يظهر بإحكام الصنعة له حسناً هو فيه ومنحة بهجة هي له كما أن الجاهل إذا وضع بين الجوهريتين خرزة هجن نظمه وأطفأ نوره، كان حبيب بن أوس ربما وقع على جوهرة فجعلها بين بعرتين قال الشاعر:

ولو قرنت بدرٍ فاخرٍ خرواً ... من الزجاج لقلنا بتسما نظما

والياقوت حسن وهو في جيد الحسناء أحسن وكذلك الشعر الجيد موندق ولكنه من أفواد
العظماء آنق والتاج الشريف هي المنظر وهو على الملك أبهى كما قال ابن الرقيات يعتدل
التاج فوق مفرقه قال أبو العتاهية لابن منذر: بلغني أنك تقول الشعر في اندهر والقصيد^ة
في الشهر فقال نعم لو رضيت لنفسي أن أولف تأليفك وأقول يا عتب بادرة الغواص
لقلت في اليوم واللييلة ألف قصيدة وقال عمر بن لجأ لشاعر: أنا أشعر منك قال: ولم
قال: لأنك تقول البيت وابن عمه وأنا أقول البيت وأخاه.

فإن منيت بحب الكتابة وصناعتها والبلاغة وتأليفها وجأش صدرك بشعر معقود أو دعك
نفسك إلى تأليف الكلام المنشور وهياً لك نظم هو عندك معتدل وكلام لديك متسق فلا
تدعونك الثقة بنفسك والعجب بتأليفك أن تهجم به على أهل الصناعة فإنك تنظر إلى
تأليفك بعين الوالد لولده والعاشق إلى عشيقه كما قال حبيب:

ويسميء بالإحسان ظناً لا كمن ... هو بابنه وبشعره مفتون

ولكن اعرضه على البنفاء والشعراء والخطباء ممزوجاً بغيره فإن أصغوا إليه وأذنوا له
وشخصوا بالأبصار واستعادوه وطنبوه منك وامترج فاكشف من تلك الرسالة والخطبة
والشعر اسمه وانسبه إلى نفسك وإن رأيت عند العيون منصرفة والقلوب عند واهية
فاستدل به على تخلفك عن الصناعة وتقاصر عنك واسترب رأيت عند رأي غيرك من
أهل الأدب والبلاغة فقد بلغني أن بعض المنوك دعا إنساناً إلى مؤانسته حتى ارتفعت
الحشة بينهما فأخرج له كتاباً قد غشا بالجلود وجمع أطرافه بالابريسم وسوى ورقه
وزخرف كتابته وجعل يقرأ عليه كلاماً قد حبره فيه وغقه عند نفسه وجعل يستحسن ما

لا يحسن ويقف على ما يستقل قراءته حتى أتى على الكتاب فقال له كيف رأيت ما قرأت عليك فقال أرى عقل صانع هذا الكلام أكثر من كلامه ففطن له ولم يعاوده إلى أن وقف به على نور مسحور ثم قذف بالكتاب في النار وهذا رجل في عقله فضلة وفيه تميز.

وإنما البنية فيمن إذا بنت له سوء نظمه واختياره ووقفته على سخافة لفظه هجرك وعاداك فاجعل هذا الأصل ميزاناً تزن به مذهبك في رسائلك وبلاغتك ولا تخاطبن خاصاً بكلام عام ولا عاماً بكلام خاص فبني خاطبت أحداً بغير ما يشاكنه فقد أجريت الكلام غير مجراه وكشفته وقصده بالكلام الشريف للرجل تنبيه لقدر كلامك ورفع لدرجته قال:

فلنم أمدحه تفخيماً لشعري ... ولكني مدحت بك المديحا

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمامها ونظامها ومواردها ومصادرها وتجنب ما قدرت الألفاظ الوحشية وارتفع عن الألفاظ السخيفة واقتضب كلاماً بين الكلامين. الجاحظ: ما رأيت قوماً أمثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتاب فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً: وقال خالد بن صفوان: أبغ الكلام ما لا يحتاج إلى كلام وأحسنه ما لم يكن بالبدوي المغرب ولا القروي المخدج الذي صحت مبانيه وحسن معانيه ودار على السن القائلين وخف على آذان السامعين ويزداد اشكوكم له بالبلاغة من إذا حاول صنعة كتاب سالت على قلبه عيون الكلام من يبايعها وظهرت من معادها وتدرج من مواطنها من غير استكراه ولا اغتصاب.

حدثنا صديق لنعثاي قال له: اعمل لي رسالة واستند مرة بعد أخرى فقال له: ما أرى بلاغتك إلا شاردة فقال له العثاي. لما تناولت القلم تداعت علي المعاني من كل جهة فأحييت أن أترك كل معنى يرجع إلى موضعه ثم أجنبي لك أحسنها. أمني يزيد بن عبد الله أخو ديناراً علي كاتب له وأعجل عليه الإملاء فتعثر قنم الكاتب عن تقييد إملائه فقال متحرشاً: اكتب يا حمار فقال الكاتب: أصلح الله الأمير إنه لما هطفت شآبيب الكلام وتدافقت سيوله علي حرف القلم كل القلم عن إدراك ما وجب عليه تقييده فليتكسر الأمير عذري فكان جوابه أبلغ من بلاغة يزيد. وكلما احتلوا الكلام وعذب ورق وسهنت مخارجه كان أسهل ولوجاً في الأسماع وأشد اتصالاً بالقلوب وأخف علي الأفواه ولا سيما إذا كان المعنى البديع مترجماً للفظ موق شريف ومعبراً بكلام مؤلف رشيق لم يشبهه التكلف بميسمه ولم يفسده التعقد باستهلاكه كقول ابن أبي كريمة.

قفاه وجه حسن والذي ... قفاه وجه يشبه الضم

فهجن المعنى بتوعر مخارج الحروف وأخذ الحسن بن هاني فسيهه. وقال بذ حسن الوجوه حسن قفاكا وكلاهم من حسان حيث يقول:

قفاؤك أحسن من وجهه ... وأملك خير من المنذر

وانظر إلى سلامة الحسن بن سهل حيث قال:

شرست بل لت بل قابلت ذاك بدا ... فأنت لا شك فيك السهل والجبل

وكتب عيسى بن طيبة كتاباً إلى بعضهم فعقد كلامه وجاز المقدار في التنطع فوق له:

أني يكون بليغاً ... من اسمه كان عياً

وثلت الحرف منه ... إذا كتبت مسياً

ودخل كاتب على مريض فوجده يئن فخرج من عنده فوجد طائراً يقال له الشفانين
بباب الطاق فاشتراه وبعث به إليه وكتب كتاباً يتنطع فيه ويذكر أنه يقال له الشفانين
شفاء من الأنين فأجابه لو عطست ضباً لم تكن عندي إلا نبطياً فاقصر عن بغضك وسهل
كلامك ومثله بمحمد الموصلي يهجو حبيب بن أوس الطائي:

أنت عندي عرني ... عرني والسلام

شعر ساقيك وفخ ... ذيك خزامي وقمام

وقفاً تحلف ما أن ... أعرفت فيه الكرام

أنا ما ذنبي إن الذ ... نبي فيك الأنام

وسألني بعض أهل العلم أن أكتب له قصة إلى جعفر بن عبد الواحد القاضي وقال: اكتب
لي قصة سهلة بليغة الألفاظ فقلت له: دعني أكتب لك ما يصنع للقضاة فغضب وقال ما
أسأل أن تعطيني شيئاً إنما أسألك هذا المعنى الرخيص فاحتملت عبه لذهام فكتبت له
قصة لا تصلح أن تدفع إلا لرؤية بن العجاج يقرؤها أو الطرماح فلما حصلت بيد
القاضي أراد قراءتها فإذا هي مغلفة عليه فقال له: أنت كتبت هذه القصة قال: نعم.
فقال: إذا فقرأها فذهب ليقراها فإذا هي بالسودانية استعجماً عليه فقال له: أصلح الله
القاضي إنما أقرأها في بيتي فقال له: فاطلب حاجتك إذا في بيتك فرجع إلى غضبان أسفاً
يشتم ويؤذي وسألني أن أكتب له قصة على ما أرى فكتبت له كتاباً يشبه أن يكون من
مثله إلى القضاة فقرأها وقضى حاجته وعلم أنه لم يكتب واحدة منهما والكتاب إذا لم
يكن بحاجة صاحبه كان أحد الأسباب المانعة والمعاني كلها ممثلة والكلام مشبعاً ولكن
سياسته صعبة وتأليفه شديد إلا على جهابذته وفرسانه أمراء الكلام يصرفونها كيف

شاؤوا ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ويكون اللفظ الأسبق إلى الأسماع من معناه إلى القلوب.

الجاحظ: كان لفظه في وزن إشارته وطبعه في معناه في مطابقة معناه ذكر الحسن ابن وهب أحمد بن يوسف فقال ما كنت ألفظه آنق أم معناه أو معناه أجزل أم لفظه. والمعاني وإن كانت كامنة في الصدور فإنها مصورة فيها ومتصلة بها وهي كالآليء المنظومة في أصدافها والنار المخبوءة في أحجارها فإن أظهرته من أكنانه وأصدافه تبين حسنه وإن قدحت النار من مكانها وأحجارها انتفعت بها وإلا حذق المستبسط وصواب حركات المستخرج وقصد إشارته وكلما كان الكلام أفصح والبيان أوضح كان أدل على حسن وجه المعنى الخفي بالروح الخفي واللفظ الظاهر بالجسمان الظاهر وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ولا النظام متسقاً والدال على المعنى أربعة أصناف لفظ وإشارة وعقد وخط.

وذكر أرسطاطاليس خامساً وهي تسمى النصبية وهي الحالة الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة الناطقة بغير لفظ والمشييرة إليه بغير يد وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وفي كل صامت وناطق وهي داخلة في جملة هذه المعاني الأربعة وخارجة منها بالهيئة.

ولكل واحدة من هذه الدلائل صورة مخالفة لصورة صاحبها وحلية غير مشاكلة لحلية أختها غير أنها في الجملة كاشفة عن أعيان المعاني وأوضح هذه الدلائل صنفان منها وهما النسان والقلم وكلاهما يترجahan ويدلان على القلب ويستميلان منه ويؤديان عنه ما لا تؤدي هذه الأصناف الباقية.

وأما اللسان فهي الآلة التي يخرج الإنسان بها من حد الاستبهام إلى حد الإنسانية ولذلك قال صاحب المنطق: حد الإنسان الحي الناطق وإنما يبين عن الإنسان اللسان وعن المودة العينان والله سبحانه رفع درجة اللسان فأنتطقه من بين الجوارح بتوحيدة وما جعل الله من عبء عن شيء مثل من لم يعبر عنه.

الأعور التيسري:

لسان الفتى ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال آخر:

إن الكلام لفي الفؤاد وأنا ... جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

الطائي:

ومما كانت الحكماء قالت ... لسان المرء من خدام الفؤاد

لنخط صورة معروفة. وحلية موصوفة وفضيلة بارعة. ليست لهذه الأوصاف لأنه ينوب عنها في الإيضاح عند المشهد ويفضلها في المغيب وكفى بفضيلة العلم والخط قول الله عز وجل الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم وأقسم به كما أقسم بغيره ثم أقسم بما يكتبه القلم إفصاحاً عن حاله وإعظماً لشأنه وتنبهاً لذكره فقال: وما يسطرون. ومن فضيلة الخط أنه لسان اليد ورسول الضمير ودليل الإرادة. والناطق عن الخواطر. وسفير العقول وروحي الفكر. وسلاح المعرفة. ومحادثة الأخلاء على التنائي. وأنس الأخوان عند الفارقة. ومستودع الأسرار. وديوان الأمور. وترجمان القنوب. والمعبر عن النفوس. والمخبر عن الخواطر. ومورث الآخر مكارم الأول والناقل إليه مآثر الماضي والمخند له حكمته وعلمه والمسامر للعين بسر القلب. والمخاطب عن الناصت. والمجادل عن

السأكت. والمفصح عن الأبيكم والمتكلم عن الآخرس الذي تشهد له آثاره بفضائله وأخباره بمناقبه وقد وقعت البلاغة من العلم علو القدر وبإذخ العز كأبي مسلم صاحب الدولة فرقت شمه وبددت جمعه ونقضت برمه وأفسدت صلاحه وضعضعت بنيانه مع ذكائه وتفظنه ومكايده ودهائه وأصالة رأيه وشدة شكيبته وامتناعه على أبي جعفر ونفاره عنه كيف استفزه ابن المقفع وطالح بن عبد القدوس وجبل بن زيد واستمالوه بسحر ألفاظهم وبلاغة أقلامهم حتى نزل من باذخ عزه وجاء مبادراً حتى وقع في الشرك المنسوب له ففترق جمعه وانطقاً نوره وصار خبيراً سائراً وأثراً ورفع القلم خاشع الطرف صغير الخطر لئيم الجنس من ناظريه حتى شافهت بع عنان السماء ورفعت بناءه فوق البناء حتى طلبه الراكب وقصده الطالب وخشعت له الرجال. ولحظته العيون بالوقار. وتمكن من الصنائع ومدت نحوه الأصابع.

فشكرت منه اللفظة. ورجيت منه اللحظة. كمحمد بن عبد الملك بن الزيات وفيه يقول
عني بن الجهم:

أحسن من عشرين بيتاً سداً ... جمعك معانهم في بيت

ما أحوج الملك إلى مطرة ... تغسل عنه وضر الزيت

فأجابه محمد بن عبد الملك:

رقيت في القول إلى خطة ... قدرك فيها قد تعديت

فیر تم الملك فلم نلقه ... حتى غسلنا القار بالزيت

ومدحه حبيب بن أوس بمدحه ويصف قلبه:

لك القلم الأعلى الذي بثباته ... تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

وكان محمد من ألطف الناس ذهناً وأرقهم وأصدقهم حساً وأرشقهم قلماً وأملحهم إشارة إذا قال أصاب وإذا كتب أبلغ وإذا أشعر أحسن وإذا اختصر أغنى عن الإطالة أمره الواثق أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ويعلمه أنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم وفوض ذلك لابن اسحاق بن إبراهيم فكتب أما بعد فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

سهل بن بركة يهجو أبا نوح النصراني الكاتب فقال:

بأبي وأمي ضاعت الأحلام ... أم ضاعت الأذهان والأفهام

من صد عن دين النبي محمد ... إله بأمر المسلمين قيام

إلا تكن أسيافهم مشهورة ... فينا فتلك سيوفهم أقلام

قال عبد الرحمن بن كيسان استعمال الكلام أجدر بإحضار الذهن عند تصحيح الكتاب من استعمال النسان على تصحيح الكلام ولم يختلف في شرف القلم وإنما اختلف في كيفية البلاغة وماهيتها وقد مدحها كل قوم بأوضح عبارتهم وأحسن بيانهم فقال صاحب اليونانيين البلاغة تصحيح الأقسام واختيار الكلام. الرومي: البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة. الفارسي: هي معرفة الفصل من الوصل. الهندي: هي البصر بالحجة والمعرفة لمواضع الفرصة ثم أن يدع الإفصاح بها إلى الكتابة عنها إذ كان الإفصاح أوعر طريقاً وربما الإطراق عنها أبلغ في الدرك وأحق بالظفر. غيره: جماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول وقلة الخدق بما التبس من المعاني وغرض وبما شرد من اللفظ وتذر ثم قال وزين كنهه وبهاؤه وحلاوته أن تكون الشئائل معتدلة والألفاظ موزونة والنهجة نقية فإن جامع ذلك السن والسنن والجمال وطول

الصست فقد تم كل التمام. وقيل لهندي ما البلاغة فأخرج صحيفة مكتوبة عندهم فيها أول البلاغة احتمال آلة البلاغة. وذلك أن يكون البليغ رابط اتلجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ متحيز للفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام ولا الملوك بكلام السوق ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ويصعبها كل التصعبة ويهذبها غاية التهذيب ولا يكون كذلك حتى يصادف فينسوقاً حكيماً ومن قد تعود فضل الكلام وأسقط مشترك اللفظ. أنوشروان لبزر جههر: متى يكون العبي بليغاً فقال إذا وصف بليغاً أرسطاطاليس: البلاغة حسن الاستعارة.

بشر بن خالد: البلاغة التقرب من المعنى البعيد والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالقليل على الكثير.

خالد بن صفوان: ليس البلاغة بخفة اللسان ولا بكثرة الهذيان لكنها إصابة المعنى والقرع بالحجة.

عمر بن عبد العزيز: البليغ من إذا وجد كثيراً ملاءه وإذا وجد قليلاً كفاه.

ابن عتبة: البلاغة دنو المآخذ وقرح الحجّة والاستغناء بالقليل عن الكثير. بعضهم: إني لأكره للإنسان أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار عقله كما أكره أن يكون مقدار عقله فاضلاً عن مقدار لسانه وعلمه. يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع.

عمرو بن عبيد: ما البلاغة فقال: ما بلغك الجنة وعدل بك عن النار وما بصرك بمواقع رشك وعواقب غيك فقال السائل ليس هذا أريد. فقال: من لم يحسن أن يسكت لم

يحسن أن يسمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول قال ليس هذا أريد. قال النبي عليه الصلاة والسلام: إنا معشر الأنبياء بكاؤون وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله فقال له السائل ليس هذا أريد قال كانوا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت فقال ليس هذا أريد فقال فكأنك إنما تريد تحير اللفظ في حسن إفهام أنك أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤنة عن المستمعين وتزوين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستوجبت من الله سبحانه جزيل الثواب. الخليل بن أحمد: كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقاً ولتلك الحال وفقاً وآخر كلامك لأوله مشابهاً وموارده لمصادره موازناً فافعل واحرص أن تكون لكلامك متبهماً وإن ظرف ولنظامك مسترياً وإن لطف بمواتاة آلتك لك وتصرف إرادتك معك فافعل إن شاء الله.

وهذه الرسالة عذراء لأنها بكر معانٍ لم تفرعها بلاغة الناطقين ولا لمستها أكف المفوهين ولا غاصت عليها فطن المتكلمين ولا سبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين فاجعلها مثلاً بين عينيك ومصورة بين يديك ومسامرة لك في ليلتك ونهارك تهطل عليك شآبيب منافعها ويظلك منها بركاها وتوردك مناهل بلاغاتها وتدل على مهيع رشدتها وتصدرك وقد نفع ظمؤك بينابيع بحر إحسانها إن شاء الله عز وجل والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

جابلق وجابلص أو جابلقا وجابلصا

كان الإفرنج قبل أن يعنوا بدرس اللغات الشرقية ينسبون أشياء جمة إلى العرب ويقولون عنها أنها خرافات لا نصيب لها من الحقيقة بل ولا أثر لها في عالم الوجود.

ولما أخذوا بالبحث عن تلك الأمور والإيغال فيه ناموا يرجعون شيئاً فشيئاً عما عزوه إليهم تحكماً أو تمكماً وبدأوا ينضون إليهم مستصوبين أقوالهم. إلا أنه مما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن الناطقين بالصناد بالغوا في ذكر بعض الأمور العرضية حتى كاد الجوهر يخرج عن طوقه بما حملوه الوهمية نقلاً عن ليسوا من فرسان الميدان. ومن هذا القبيل هاتان المدينتان اللتان نريد أن نبحث عنهما في نبذتنا هذه.

أخلاف اللغات فيها

قال في اللسان في مادة جيلق: التهذيب: جابلق وجابلص (أي بفتح الباء الموحدة التحتية وفتح اللام في كنيهما على ما ضبطتا كتابة) وأما في القاموس فقد ضبطهما أيضاً بالفتح في جابلق وبالفتح أو بالسكون في جابلص. وذكرها ياقوت في معجمه: جابرس وجابلق أي براء مهملة ساكنة بعد الياء الموصلة التحتية. ولام ساكنة بعد الياء في الثانية ورواها صاحب البرهان القاطع روايات مختلفة الذكر فذكر في ٢: ٧٩ ج بلسان في جابلق. ورواها أيضاً جابرسان وجابرُسا في جابلص. وحكى في شفاء الغليل إن المتكلمين يقولون جابلقاء وجبلصاء بالمدّ وخطأهم. وأرددهما الطبري في تاريخه بصور مختلفة أي جابرت وجابرس وهو يريد جابلص وجابلق وجابلقا وهو يرمي إلى جابلق. فهذه اللغات والروايات وإن اختلفت فهي واحدة في المرجع والأصل ثم اختلفت تبعاً لسنة المعرب أو الأعجمي على ما هو مشهور في ما أفرغ في قالب عربي. وتعاور اللام والراء في العربي الفصيح أمر مشهور كالطمنسَاء والطرمساء وداهية لبسَاء وربساء وناقة عبهر وعهبل

فكيف في الدخيل. ومثله يقال في تبادل التاء والسين في لغة معروفة في اليمن وهي الونم.
ولا حاجة في التصريح بأن السين والصاد تترادفان في العربية والأمثلة تفوت الحصر
(المزهر ١: ٢٢٦ و ٢٢٧).

أقوال العرب فيها

قال في التهذيب: جابلق وجابنص: مدينتان إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب لس
ورأهما إنسي روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه ذكر حديثاً ذكر فيه هاتين
المدينتين. أهـ.

وقال الإمام السهيلي في كتاب المبهمة: أظنها مجاورتي ياجوج وماجوج. وقد آمنوا بالنبي
صلى الله عليه وسلم إذ مرّ في ليلة الإسراء فدعاهم فأمنوا. أهـ.

وقال الخليل: بلغنا أن معاوية أمر الحسن بن علي أن يخطب الناس. وهو يظن أن الحسن
سيحصر لحدائنه فيسقط من أعين الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها
الناس أنكم لو طلبتم ما بين جابلق وجابنص رجلاً جدّه ونبيّ ما وجدتموه غيبي وغير
أخي وأن أدري لعنه فتنة لكم ومتاع إلى حين وأشار بيده إلى معاوية. أهـ.

وقد جاء حرف جابلق في شعر أبي الأسود الدؤلي على أنه اسم موضع معروف قد شاهده
فقد قال:

تلبس لي يوم التقينا عويمر ... بجابلق في جند أحسن باسل

فهذا كلام يشعر بأنهما التقيا بجابلق. وهي غير جابلق الواردة في حديث الحسن وهي التي
ذكرها أحمد بن يعقوب الهمداني في كتاب الإكنيل إذ يقول: في جابلق وجابنص بقايا عاد
وثمود الذين آمنوا بآلهود وصالح.

وقال ياقوت في معجمه في مادة جابر س. مدينة بأقصى المشرق. يقول اليهود إن أولاد موسى عم هربوا أما في حرب طالوت (= شاول) أو في حرب بخت نصر فسيرهم الله وأنزلهم بهذا الموضع فلا يصل إليهم أحد وأقم بقايا المسلمين. وإن الأرض طويت لهم وجعل الليل والنهار عليهم سواء حتى انتهوا إلى جابر س فهم سكانها ولا يحصي عددهم إلا الله فإذا قصدهم أحد من اليهود قتلوه وقالوا: لم تصل إلينا حتى أفسدت سنتك فيستحلون دمه بذلك. وذكر غير اليهود أنهم بقايا المؤمنين من ثمود وجابلق بقايا المؤمنين من ولد عاد. أهـ. وذكر في جابلق: جابلق بالياء الموحدة المفتوحة وسكون اللام. روى أبو روح عن الضحاك عن ابن عباس أن جابلق مدينة بأقصى المغرب وأهلها من ولد عاد وأهل جابر س من ولد ثمود ففي كل واحدة منهما بقايا ولد موسى عليه السلام كل واحدة من الأمتين. أهـ. المقصود من إيراده.

وقال صاحب التاج في مادة ج ب ر س جابر سا آخر بلاد الدنيا (من جهة المغرب) وقال في جبلق: جابلق قد أوضح المولى سعد الدين البنددين وعرف بمسا وذكر معناها على الوجه الأكمل في بحث المثال في شرح المقاصد. ذكر ذلك الشهاب في شفاء الغليل. . . . أهـ قلت أنا: لم أر شيئاً في شفاء الغليل المطبوع في مصر مما ذكره صاحب التاج. نعم إنه تكلم عن البنددين إلا أنه لم يتطرق بكلمة بخصوص المولى سعد الدين. فاحفظه. وأما شرح المقاصد لسعد الدين فهو وإن كان يبيد إلا أنه لما كان خالياً من فهرس مرتب يهديني وحيّاً إلى مطلبي لم أتمكن من العثور على البحث المذكور فرجعت عنه بما رجعت به حينئذ.

وكفانا تتبعاً لأقوال الكتبة إذ اجتزأنا بذكره وفاء بالمقصود لا سيما أن الجميع يكررون أقوال بعضهم عن بعضٍ والنتيجة واحدة. والذي يستخلص مما تقدّم بعد طرح الزوائد الدخيلة انني جاء بها الإسرائيليون ما يأتي:

جانبص آخر البلاد المعنورة من جهة المغرب على ما كان يظنه أبناء ذلك الزمان وجانبق آخر البلاد من المشرق وجانبق تاور بلاد ياجوج وماجوج. وجانبص في أقصى المغرب وأقصى المغرب كان ينتهي في عرف الأقدمين عند بحر الظلمات في نحو الجزائر الخالدات أو في ما يسامتها. وعليه فيجب علينا أن نبحث عن جانبق أو جانبقا في ما يجاور بلاد ياجوج وماجوج ونبحث عن جانبص في ما ينتهي عند بحر الظلمات. وأول كل شيء نحتاج إليه في البحث عن ضالّتنا أن ننظر إلى الكنية ونفحصها لنعرف مآثاها. والحال أن العلماء قد اتفقت على أن اللفظة ليست بعربية ورجحوا كونها فارسية. لأنهم يقولون أن الجيم والقاف أو الجيم والصاد لا يجتمعان في لفظة عربية وإذا وجدتا فهما يدلان على أن الكنية أعجمية أو فارسية. فإذا تقرر أنّها فارسية يتضح لك أن وجود جا في صدر كلا الحرفين يدل على أن اللفظة مركبة وأن جا تعين معنى يصح أن يقع على الكلمتين. وهو أمر لا ريب فيه فإن جا حرف فارسيّ معناه اخل والمكان والمقام. أو كما يقول العرب الدار التي وردت بمعناها الأصلي الحقيقي وبمعنى البلد والمدينة. لأن أول ما تنسا عليه المدينة تكون داراً ثم تتنّى دور أخرى بجانبها حتى تقوم منها البند أو المدينة. فقد قالوا دار السلام ودار الإسلام ودار السعادة ودار الحرب إلى آخر ما هنالك. وأما بلقا أو بُلقا فيجب أن تكون اسم مدينة في آخر البلاد المعنورة من جهة الشرق مما يجاور بلاد ياجوج وماجوج وهذا ما يصدق على بلدة بلقا وبالفرنجة وهو اسم نهر عرفه العرب

أيضاً لخروجهم من سقي ذلك النهر. ويشهد على صحة ذلك وجود مدينة هنالك تسمى إلى اليوم بنقاري أو بنغاري وهم يكتبونها بحرف تمييزاً لها عن أو للبلاد المشهورة. واللاحقتان بآخر الكنم تدل على البلاد كما في كما أن جا في رأس الألفاظ تفيد هذا المعنى عند الفرس ومنها جابروان وجابق وجاجرم وجاجن وجاسك وجاكرديزه وجالقان وجاورسان إلى غير هذه.

وأما جانبص أو جابرسا أو جانبنا أو جانبنا فهي: بنص أو برصا أو بنصا أو بنسا بعد تجريد جا عنها. وإذا فتشنا عن مدينة بهذا الاسم في منتهى المغرب المعروف في ذلك العهد وجدناها باسم بنسا أو بنصا في بلاد لوسينانية أي هي البلدة المعروفة اليوم باسم تافيرة في بلاد البرتغال.

وإذا عنمت ذلك ظهر لك أن لا حق للأجانب أن ينسبوا العرب إلى الجهل والقول بالخرافات والله الهادي إلى كل صواب.

بغداد —

ساتسنا

نظرة في نخب الذخائر في أحوال الجواهر

وقفت على نسخة مضبوطة قديمة العهد من نخب الذخائر وعنقت عليها بعض حواشي وملاحظات لأنشرها في إحدى الجلات. فسبقتني إلى ذلك مجلة المشرق البيروتية في سنتها الحادية عشرة صفحة ٨٥١ وبالمقابلة وجدت أن نسخة المشرق ليست بمضبوطة كل الضبط وقد وقع فيها أغلاط وسقط منها عبارات وكلمات فترقت فرصة أخرى أنشر نسختي مع حواشيها وملاحظاتي على مجلة المشرق. ولما زرت حنب في الصيف الماضي

زدت النسخة تحقيقاً بمعارضتها بنسخ كثيرة فزدت ثقة بما اجتمع لديّ منها ثم انتهى إلى منذ أسبوعين الجزء السابع من مجلّتكم المقتبس الغراء. لمنتها الرابعة فإذا بكم نشرتموها أيضاً فعارضت ذلك بنسخي فوجدت اختلافات أفردت لها هذه المقالة الآن وقبل أن أدخل في الإشارة إلى اختلافات نسخة المشرق والمقتبس عن نسختي أقدم الكلام في أحوال الجواهر والمعادن وما عرفه العرب عنها مع اعتقاداتهم واعتقادات الإفرنج بالحجارة الكريمة.

إن مؤلف نخب الذخائر في أحوال الجواهر هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري المصري المعروف بابن الأكفاني نسب إلى سنجار حيث ولد ونشأ وطبّ بمصر وتوفي بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م وترك مؤلفات ذكر بعضها الحاج خليفة في فهرسه كنف الظنون منها كشف الرين في أمراض العين وغنية النيب في غيبة الطبيب ونهاية القصد في صناعة الفصد وإرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد وهذا طبع مؤخراً في بيروت سنة ١٩٠٤ م في ١٤٨ صفحة وبعضها لم يذكرها منها بالنظر والتحقيق في تقليب الرقيق وغيرها مما هو في بعض مكاتب أوروبا والشرق وأخبار المؤلف قنينة.

ولقد ألف كثير من القدماء في الجواهر منها كتاب (الأحجار) لأرسطو صنفه واستخرج بنظره والإرشاد الإلهي خواصها ومنافعها وذكر فيها خاصية ستائة حجر ونيف. وقد عرّبه لوقا بن سراييون وعليه اعتمد العرب في ما كتبه عن الجواهر. فآلف في هذا الفن أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) واسم كتابه الجواهر في الجواهر. وأبو العباس أحمد بن يوسف اليفاشي القاهري المتوفى في سنة ٦٥١

هـ (١٢٥٣ م) قاسم كتابه (أزهار الأفكار في جواهر الأحجار) وصف فيه ما في خزائن المنوك منها.

وقد رأيت نسخة منه في حنب وطبعه أنطونيو رانادي الإيطالي في فرنسا سنة ١٨١٨ م ونقله إلى الإفرنسية كليمان موله. ومن ألف في المعدنيات والأحجار الشيخ تقي الدين أحمد بن علي المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م. واسم كتابه (المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية). وموفق الدين البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ (١٢٣١ م) له رسالة في المعادن وإبطال الكيمياء.

ومن أشهر من كتب في هذا زكريا بن محمد بن محمود الكوفي القزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٤ م) في عجائب المخلوقات معدداً الحجارة والمعادن. والأبشيحي المتوفى في أوائل القرن التاسع ينتهي في المستطرف الباب السابع والستون. وابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٧ هـ (١٣٧٦ م) في رحلته ذكر مغاص الجوهر بين سيراغ والبحرين. ومعدن الياقوت في جزيرة سيلان وعدد بعض اللآلئ في خزائن المنوك والعظماء.

وأبو الحسن المسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) عدّد في كتابه مروج الذهب بعض المغاوص ووصف بعض الجواهر مما لا يخرج عن اعتقاد العرب وتسمية للفائدة أذكر أسماء المعادن والحجارة الكريمة التي أوردتها القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات) قال: المعدنيات تقسم إلى الفلزات وهي الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والأسرب والخنار صيني وإلى الأحجار وهي الإثمّد وحجر أرسون وحجر افيداج وحجر افرنجس وقلبييا الذهب وقلبييا الفضة وباهت وبسد وبنور والبورق وتجادق وتدمر وتنكار وتوتيا وجالب النوم وجزع وحامي وبليناس واسمانجوي وحجر أبيض وأحمر

وأسود وأصفر وأغبر وحجر الباهة والبحر والحباري والحصاة والحية والخطاف والدجاج
والرحى والسامور والسم والشرطين والصدف والصنوبر (السنونو) والعاج والعقاب
والغار والقصر والقيء والكنب والمطر وحجر تنمرغ فيه الناقة وحجر يتولد في
الإنسان وحجر يتولد في الماء الراكد وحرض وموساي وخبث الحديد وخصية النضر
وحجر در ودمنج وحجر دمياطي ورخام ورقوس وأحجار زاجات وحجر زيد البحر
والزجاج والزرنخ والزنجار والزنجفر وحجر سيج وسنسليس وسناج وشاذنج وشب
وصدف وطارد النوم وحجر طالقون وطلق وطرموطوس وحجر عقيق وعنبري وعطاس
وحجر فادزهر وفرسلوس وفرطاسيا وفرفوس وفيروزج وفيلقوص وفيهار وقرباطيسون
وقروم قنقديس وقنطار وقنقدو وقلي وقيسور وقبراطير وحجر كرسباد وكرسیان
وكرك وكerman وكهرباء وحجر لازورد ولاقط الذهب وحجر لاقط الرصاص وحجر
لاقط الشعر وحجر لاقط الصوف وحجر لاقط العظم وحجر لاقط الفضة وحجر لاقط
القطن وحجر كاغيطوس وألماس ومغناطيس وماهاني ومراد ومرجان ومرداسنج ومرقشتا
ومسن ومسهل الولادة وحجر مغناطيس ومنج وحجر نظرون وحجر نوبي ونورة
والنوشادر وحجر هادي وحجر ياقوت وحجر يشب وحجر يقظان. أم.

وذكر الأبشيحي في المستطرف أن المعادن تقسم إلى ما يذوب وما لا يذوب وقال أن
المشهور منها سبعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والاسرب والخاصي.
والزمرّد والزبرجد والفيروزج والعقيق والجزع والبنور والمرجان وحجر الماغنيس
والحجر الماهاني وحجر مراد والدمنج والسج والمغناطيس وحجر الخطاف وحجر الزجاج
وحجر الزنجفر وحجر المنج وحجر النظرون وحجر اللازورد. أم.

وقد ذكر كل من القزويني والأبشيهي خرافات كثيرة بشأن خواص الجواهر واتخاذ الناس لها مما كان أقدم من ذكر مثله من الاعتقادات أرسطو وديوسقور يدس اليونانيان وبينوس الروماني وغيره فجاءهم العرب بهذه الأفكار.

وربما يظن بعضهم أن العرب ومن تقدمهم من الأمم اعتقدوا بهذه التخريصات فقط مع أن لمسلمي الإفرنج حتى يومنا اعتقادات ليست بأقل من تلك أوهاماً فالإنكليزيون يعتقدون أن الياقوت يشفي من الرثية (الروماتزم) ويبقي حامنه من برد الأطراف والفيروز يحمي حامنه من السقوط من شاهق والياقوت الأزرق يحمي حامنه من الأفاعي ويزعمون أن حجراً كريماً يظهر في رأس المرأة كل ألف سنة فمن يجعده تحت لسانه تنبأ وأخير بالغيث. وأهل نابولي في إيطاليا يلبسون أحجية المرجان تعويذاً من عيون الحساد. ويزعمون أن الزبرجد يزيل حدة الطبع ويشفي من البرص. ويسحنون حجر اليشم لمنع العطش واتقاء الزوابع والصواعق والفيروز للوقاية من السقوط. والعقيق لقطع نزيف الدم والاستشفاء من لدغ الثعبان. ومن اعتقاد الإفرنج عموماً أن حجر الكهرباء يقي من مرض الحمرة ووجع الحلق. وكان القدماء من الفرنجة يطردون السحر بالياقوت الأصفر ويعالجون الجنون به ويرمزون باتاس إلى العدل والعفة والنيات إلى غير ذلك.

وهناك الآن النظرة في مقالة النخب المنشورة في مجلتي المشرق والمقتبس معتمدين على مجلة المقتبس ثم على ما في نسخة المشرق وأخيراً نسختنا المحفوظة صفحة ٣٧٨ سطر ٣ كفّ أفضاله وفي نسخة المشرق ونسختنا اكفاء وهو الأظهر و سطر هـ الجواهر النفيسة بأصنافها وفي نسختنا وأصنافها. و سطر ١٣ صفحة فضة محلاة وفي نسختنا صفيحة فضة مجلوة وهي أصح و سطر ١٥ بلون البهرمانى — البهرمان. و سطر ٢١ تشبيهاً بالبحر —

تشبيهاً له بالجرم — وكان الحميري — الحميري. وطر ٢٣ بالمادني — بالمادني ولعل
الأولى أولى.

صفحة ٣٧٩ طر ١ وعن التفت — التفت وطر ٣ عثرة — غائرة. وطر ١٣
وأضعفه — وضعفه: ثلاثون ديناراً — ثلاثين. وطر ١٨ وكان في خزائن الدولة —
الأميريين الدولة محمود وطر ١٩ وكان لنقتدر فصاً — فصاً.

صفحة ٣٨٠ طر ٥ الفافقي — الفافقي وطر ٦ ينفع حدوث الصرع — يدفع وطر
٧ الياقوت الأحمر ٥ وكذا في المشرق — وفي نسخي الياقوت الأبيض وطر ٨ كان فيه
زئبق — زئبقاً. وطر ١٠ وتقال أنه وقاية لعين الجذور — ويقال أنه أصح وقاية. وطر
١٢ مفروض في وكذا في المشرق — صاف. وطر ١٤ بالمرقشيشا الذهبية —
بالمرقشيشا الذهبية: ما حني به — ما حني. وطر ٢٢ البحادي — البحادي. وطر
٢٥ بالمادني — بالمادني. وطر ٢٦ بدخشان — بدخشان.

زحلة (لبنان) —

عيسى اسكندر المعنوف

سير العلم والاجتماع

كيف نحسن الأكل

كثيراً ما ينشأ سوء الهضم من هيئة الجسم ووضعه فإذا أردت أن تتقيه فعليك بجعل
قامتك منتبحة ما أمكن واقفاً كنت أو جالساً فنقي كفيت إلى الوراء. وصدرك إلى
الأمام وهذا من أهم القواعد في حفظ الصحة. ومن أنفع الرياضات لتقوية أعصاب
الظهر والبطن أن يستلقي المرء على قفاه ويجعل يديه تحت نقرته ويجنس رويداً رويداً

ويده قابضتان على قفاه ويكرر هذا العمل مرات بتنويعه فيحنى إلى الأمام وهو جالس ويمد يديه ليس طرفي ر . . بأطراف أنامله . وهناك رياضة أخرى نافعة كثيراً وهو أن يقف المرء منتصب القائمة وينحنى إلى الوراء ثم يرجع إلى الأمام ويميل ذات اليمين ثم ذات الشمال وينتقل إلى الأطراف الأربعة بدون أن ينقل رجليه من مكانهما ثم يقف رافعاً يديه ومفرقاً بين رجليه كهذا الحرف ويمد بعد ذلك حفته بحيث تماسان وهو واقف مباعداً بين ساقيه ومنحنياً يمد يديه ما أمكن . هذه الحركات من شأنها تقوية عضلات البطن فإذا قام بها الإنسان قبل الأكل تبعث شهوته للطعام وإذا أتاها بعده تسهل عليه الهضم ومما ينصح به لمن يريد حفظ صحته أن يبدل قبل الجلوس إلى المائدة ثيابه في النهار أو ثياب عذبه ويضع المائدة وضعاً محكماً لأن لرداءة وضع الحفان تأثيراً في شهوة الأكل والنظر إليه وحده باعث على سوء الهضم والأحسن أن يستريح الإنسان قليلاً قبل الدلاء وعليه أن لا يجنس على كرسي وذراعه على ركبته وظهوره منحني لأن هذه الجلسة تروق الهضم .

النوراستينيا

النوراستينيا أو ضعف المجموع العصبي السم لمرض عرف منذ ثلاثين سنة وهو يزداد مع الحضارة والإفراط في مقتضياتها وهو عبارة عن تغلب الحالة العصبية على باقي المجموع العصبي والعصبي أعظم أمراض هذا العصر فالتعب على اختلاف أنواعه والاضطراب الدائم واشتغال الفكر في المعاش ولا سيما في المدن الكبرى والهجوم ومعاكسة الدهر والحياة في لعشق وتعب الإسراف على النفس كلها من الأسباب الصحية المعتادة في انحلال الأعصاب وضعف مجموعها . وربما هذا المرض وراثياً فيحدث عنه إذ ذاك ضعف منوع في الأعصاب يؤدي إلى داء المفاصل وداء الملوك وهما من الأمراض العصبية كما

هو المعلوم وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى الأمراض العنقية واضطراب الآلة الهاضمة والتناسل البولي. وأعراض النوراستينيا واحدة في الأكثر أهمها وجع الرأس ووجع الظهر والأرق والاضطرابات المعدية خاصة والضعف الذي يعم الجسم. وكثيراً ما تقل الوظائف العقلية والذاكرة والانتباه والإرادة ويصبح التأثير قريباً من المرض ويصحب كل ذلك قلق دائم وأفكار مرتبكة رديئة ويبدو التعب العام في الصباح عند الانتباه منت النوم فيشعر المريض أحياناً بتكسر في جسده وارتخاء في قواه.

ويشعر بأهم الاضطرابات المعدية بسوء الهضم وثقل في جوف المعدة وأحياناً في قرصها فهذا المرض هو سوء هضم عصبي وكثيراً ما تقل شهوة الطعام وينخبط البطن وتوى في الوجه طفحة حمراء.

والنوراستينيا كالهستيريا (اختناق الرحم) لا تهلك صاحبها بل تسبب جسده وتصعب عليه الحياة ويتأتى للنصاب به كل حين أن يشفى منه وليس المعول فيه على الدواء والدواء ثانوي فالهم في شفائه أن يُزال السبب الذي نشأ منه كالاهتمام بالأشغال والأعمال العقلية المفرطة في كل شيء. وتغير البيئة والمقام في الفلاة مما ينفع في شفائه نفعاً كبيراً. أما مداواته فالأحسن بالكهربائية والاستحمام بالماء الفاتر. والاستحمام بالكهربائية يؤثر في التغذية والأعصاب فلاضطرابات المعدية والشقيقة والأرق والأحلام الرديئة تقطع بمجرد توجيه الكهرباء إلى الرأس. ونحاف الأجسام يتفعن بالاحتقال بالزرنخ ويفيد فيه التغير (التمسيد) ولا بأس من استعمال بعض المشروبات التي تزيد القابلية لنظام وأخذ خلاصة القنب الهندي من عيار خمسة في المئة سانتغرام يزيل وجع الشقيقة لا محالة.

عمر الجراثيم

ثبت لأحد العلماء الألمان أن الجراثيم أطول أعماراً ومقاومة للاحتفاظ بحياتها مما نتوهمه لعنتنا أنها أحياء صغيرة لا ترى إلا بالمجهر فقد أخذ خراطيش حشاها رصاصاً وجعل عليها ألوفاً من الجراثيم ثم ملأ بنقبة وأطلق الرصاص على عنبه من التبن وكان فيها نوع من الهلام المسائل الذي يصلح لأن تعيش فيه الميكروبات ولما محض العنبه شاهد أن الجراثيم التي أطلق عليها الرصاص قد نمت وتكاثرت بدلاً من أن تموت ب إطلاق النار عليها والأغرب أنه رأى الرصاصه قد أخذت من الهواء جراثيم أخرى في طريقها أكثر حياة ترتفع في الجسم الذي تحمل فيه ولا تبقى ولا تذر.

تنظيف الرأس والشعر

يستعمل لتنظيف الشعر والرأس صفار بيضة تحمل بقليل من ماء الكولونيا ويدلكن به ثم يغسل المكان بماء فاتر وينشف الشعر ويدوم مكشوفاً ريشاً يجف ولا يبقى فيه أثر للندوة.

رجال الشرطة

من زار باريس يعجب برجال الشرطة وهو يراهم في الشوارع والحجارات والمعطفات واقفين لتأييد النظام يدلون الغرباء على الشوارع وهم متجهون لكل ما يحل بالراحة ولكن الباريزيين يحسدون الإنكليز على شرطتهم ويقولون أنها أكثر نظاماً وانتباهاً وآداباً قائنين أن ثمانية آلاف لا تكفي لضرب على أيدي ثلاثين ألفاً من الأوباش والأوغاد في عاصمة الفرنسيين. ويقولون أن الشرطة في يابان يتولون حفظ النظام في شوارع أمهات المدن ويلبسون لباساً أوروبياً ويتقلدون سيفاً دلالة على سلطتهم والحكومة تختارهم من قدماء الجند ولا سيما من طبقة اسمها الساموريسية عرفت بشدتها وجلادتها في الحروب

والغارات ولذلك كان لهم في الشعب تأثير قوي ويزيدهم قوة عناية الحكومة بتربيتهم وعزة نفوسهم التي ضربت بها الأمثال. وترى رجال الشرطة في ألمانيا يلبسون لباس رجال المدفعية ويضعون على رؤوسهم خوذة وطنية سوداء لصغارهم كتب عليها بحروف من نحاس سوانل الحروف من اسم الإمبراطور وبيضاء لنضباط عليها صورة نسر بأجنحة مفردة واسم الإمبراطور بحرف مذهب. وإذا كان الألمان من أهل الطاعة العبياء أصبحت وظيفة الشرطة سهلة سواء أرادوا القيام بها مع الفرد أو مع الغوغاء والجهامير ويعين الشرطة الرجال رجالاً من الشرطة الفرسان في مدينة برلين كما هو الحال في مدينة باريز. ويكتسي رجال الشرطة الإيطالية بجوخ أزرق وسراويل رمادية فاتحة وخوذات منوننة وينسب ضباطهم ألبسة من الحرير الأزرق وإذا كان الطينان أصعب مراساً من الألمان فكثيراً ما يشاهد رجال الشرطة في بلادهم يتناسكون مع من يريدون القبض عليه أو دعوته إلى التزام النظام وينتهي ذلك بما لا تحمد عقباه من أجل هذا جعل لرجال الشرطة الطنانية حمل من سبور الجند ليقبذوا به السجناء.

أما شرطة فينا فردعاء لطفاء يشون في وجوه الناس. وشرطي بروكسل رقيق الجانب يحاطب بلا كنفة. وشرطي هولاندة يحمل كل ما يلزم لإغاثة جريح يراه من الأدوية الأولية.

وسادة رجال الشرطة في الأرض هم بلا مرء شرطة الإنكيز ويقصون إلى قسين في لندرا قسم في الحي القديم وهو حي الحركة والتجارة وقسم لعامة أرجاء المدينة وعدد الأول ألف رجل وهو قليل المكانة بالنسبة للثاني المؤلف من ٣٠ وكيلاً و ٥٣٩ مفتشاً و ٢١٤٨ جاوياً و ١٤١٢٩ ضابط بوليس ولهم كنهم ديوان كبير فخيم وتخبرهم

الحكومة من أرباب قامات تكون أطول من الوسطى والصحة الجيدة بالطبع وعندهم ملاحظة الحراس والعسس في الليل وستون في المئة منهم يلاحظون امن المدينة ليلاً ولذلك قلنا يحدث ما يكدر وراتب الشرطي من الدرجة الثالثة ثلاثة جنيهات في الأسبوع ويدفع إليه علاوة عن كل ساعة تزيد على العشر ساعات المقررة للخدمة كل يوم وليلة. ومخافر الشرطة في لندن هي عنوان الرفاهية يعيش فيها الشرطة غير المتزوجين حائزين على كل ما ينزمهم أما المتزوجون فلهم مخافر خاصة بهم فيها قاعات استقبال وحمامات والمضخات وقاعات لعب وخزائن كتب وغيرها فيعيش الشرطة فيها مع أسرهم عيشة اشتراكية عسكرية. وفي لندرا ثلثمائة شرطي راكب لربط محطات الشرطة يستخدمون خاصة في أوقات المظاهرات والاحتفالات العامة ومثل هذا العدد لحفظ الأمن في نهر التاميس ويقوم بنجدة من تصيهم باتقة ولهم مئة قارب وثلاث سفن معدة لنجري كل حين وهكذا كانت شرطة لندرا أحمل زينة لإنجلترا واضامن لحفظها فعسى أن لا تقل شرطتنا العشانية عن أمثالهم في البلاد الإنكليزية بعد حقبة من الزمن.

علاج الشهقة

وجدوا أن خير علاج للشهقة أن يمسك لسان من يشهق بين إصبعين يمسك بهما فوطة لئلا يغلب النسان وأن يشد ما أمكن بحيث يبقى هتيهة خارج الفم فإذا لم تنجح هذه الحركة في المرة الأولى تعاد لثنائية وفي ذلك الشفاء. وقد اهتموا إلى هذه الطريقة من الدكتور لابورد الذي ما زالت تنفذ ألوفاً من العرقى والمصلوبين وغيرهم بسحب ألسنتهم.

علاج الزكام

أفضل علاج للزكام أن يدهن المزكوم منخريه بزيت الزيتون ويستشق زهر الكبريت وأن ينف صدغيه من الليل بمنديل ويمكن التوقي من الزكام في أوله ببيل المنخرين بصبغة الأرنیکا فإذا طالت مدته فليس غير هذه الصبغة يستعملها المزكوم وإن أحرقته ولكن فائدتها مضمونة.

صوت الرعد

رأى بعض الأخصائيين بعنم الحوادث الجوية أن معرفة صوت الرعد عن بعد تتوقف على ملاحظة أول العاصفة أو آخرها لا وسطها والأحسن أن يلاحظ البرق الأفقي المنبعث من بين الغيم والأرض فإن صوته الجاف يعرف على أيسر وجه من الصوت الناشئ من البرق الذي يحول بين الغيوم. قال أراغو العالم أنه لا يسمع صوت الرعد إلى أبعد من خمسة وعشرين كيلو متراً وسبقه الإمبراطور كانغ هي الصيني فقال أنه - من مسافة أربعين كيلو متراً وأن صوت المدافع يسمع إلى ٣٠ فرسخاً (١٢٠ كيلو م) وقال أراغو أن صداها قد يتردد إلى بعد مائتي كيلو متر وأنه سمعت المدافع ١ - أطلقت من ثغر بورتسبوت يوم جنازة الملكة فكتوريا إلى بعد ١٣٤ كيلو متراً وقد قام الباحث المشار إليه بتجارب عديدة منذ بضع سنين فلم يستطع أن يسمع صوت الرعد إلى أبعد من ٤٥ كيلو متراً إذا لم يحل دونه جبال ولا أكام وكان الهواء ساكناً. وإن عاصفة تحدث عن بعد خمسة عشر كيلو متراً فقط قد لا يسمع صداها حتى أن بعضهم قال أنها إذا أرعدت السماء في لاهاي لا تسمع في ليدن وهي منها على أربعة فراسخ.

عداوة الزهور

يظهر أن بعض الزهور تتعاضد أشد عداوة كالورد فإنه لا يطبق إلا سليخ (ريزيدا) ولك أن تربط واحدة من كل منها في ياقة وتضعهما في الماء فبعد ساعة تدبل الوردية وأختها على حين تزيد تلك الزهور الأخرى نضارة والسوسن قاس أيضاً على سائر الزهور يفتها بدون رحمة على العكس في القرنفل وعباد الشمس فيحب أحدهما صاحبه فوا آسفاه حتى الزهور التي تعطر الأرجاء لا يتحمل أحدهما الآخر.

مضار التدخين

في إحدى الجلات الإفرنجية إن مضار التدخين لا تنحصر في النيكوتين أي سمه فقط بل إن لندخان سموماً أخرى تصيب شاربيه وهي موجودة في تركيب مادة الدخان وهي البيرين والكريزول وحامض الكربون وغيره وكلها ضارة لمن يدخنون النفاث الكيرة والنفاث المصنوعة من التبغ وهي أسوأ أثراً في الأكثر في من ينعون الدخان فيصل إلى الرئتين فينشأ منه قيء واضطراب في القلب وعرق بارد. ولا يتوقف تبطل التدخين إلا على قوة إرادة ولأجل أن تعزف النفس عن التدخين يجب أن يتخصص المدخن بجزء ١٠. ٢٥ في المئة من نترات الفضة فإذا أحب بعدها التدخين يصاب بقرف شديد يدوم معه زمناً على أن هذه المخصصة لا تخلو من خطر ثم أن نترات الفضة تسود الأسنان في برهة قليلة ورأى أحد الأطباء الروس أن يدهن غشاء الفم بنترات على معدل خمسة في المئة والأفضل من هذين الطريقتين أن يدهن سقف الحلق بمحلول نترات الصودا بكمية ١٠ في المئة.

لون الجوارب

من الجوارب ما يزول لونه في الحال فعليك إذا أحببت حفظ ألوانها عليها أن تجعلها في ماء فاتر وتغسلها باثني عشر لتراً من الماء البارد تجعل فيه حفنة من الملح وقدحاً من الخل الجيد.

إزالة البقع

لتنظيف البقع من الثياب (كالأقمصة والقفاطين وغيرها) وإزالة آثار الرطوبة منها افركيها باخلول الآتي: منقعة من الملح ممزوجة بملقعة من ذرور النشادر تحنها في ربع قدح ماء وتضع من هذا الخنول على البقع مرات متوالية ثم تترك الثياب منشورة في الهواء نهاراً ثم تغسلها على العادة فلا يبقى فيها أثر حتى ولا البقع القديمة.

البورصة

كتب خليل أفندي سعد في المذهب رسالة في البورصة جاء فيها أن البورصة نادٍ يجمع فيه التجار والمضاربون فيشترون فيه ويبيعون إما نقداً وهو قليل وإما إلى ميعاد وهو أهم أعمال البورصة لما يجد فيه المشتري من السهولة والأمل بارتفاع الأسعار فيحصله ذلك على مشتري كميات أثمانها أكثر مما يقدر على أدائه نقداً.

وأعمال البورصة على نوعين أحدهما يختص بالتجار بمحاصيل الأرض كالقطن والحبوب والسكر والمعادن وغيرها والآخر مختص بشراء وبيع القراطيس المالية من مثل أسهم المصارف وسندات الحكومة المالية وأسهم السكك الحديدية وما شاكل ذلك.

ولكي يعنى القارئ ما معنى هذه الأسهم وكيف توجد بطريقة رسمية لتصلح صالحاً لتعامل بها نقدم له مثلاً وهو كيفية تأسيس المصارف ذات الأسهم وهاك البيان:

إذا عزم أحد عنى إنشاء مصرف وكان غير قادر على تقديم رأس المال من جيبه الخالص فإنه يدعو جماعة من المتولين للاشتراك معه في هذا العمل فيؤلف لجنة تدعى لجنة التأسيس أو المؤسسين. فهؤلاء إما أن يزدوا كل ما يطلب لرأس المال، وإما أن يقدموا جزءاً منه مقابل أسهم معلومة يأخذونها ويطرحون الأسهم الباقية برسم البيع بالاشتراك فيشترك من يريد من الناس بعدد منها كل على قدر إرادته.

فإذا أعلن المؤسسون عن وجود مئة ألف سهم مثلاً كل سهم بشاغنة قرش فقد ترد لهم اشتراكات بخمس مئة ألف سهم فيقال حينئذ إن أسهم هذا المصرف غطيت خمس مرات ولذلك فلا ينال من كان طالباً خمس مئة سهم مثلاً إلا مئة سهم فقط لوجوب توزيع هذه الأسهم بالتساوي على طالبي الاشتراك فيها.

ثم أن المؤسسين يختصون أنفسهم بأسهم يأخذونها مجاناً أو بشئ قليل جداً أي السهم بخمسة قروش مثلاً مقابل أنعمهم في إنشاء المصرف، وتدعى هذه أسهم التأسيس فيعطى لحاملها شيء معلوم مما يبقى من الأرباح بعد توزيع خمسة في المئة مثلاً على حاملي الأسهم العادية.

قلنا أن ثمن السهم من أسهم هذا المصرف الاعتيادية مئة قرش فإذا عمل المصرف بعد تأسيسه أعمالاً كثيرة الربح ارتفعت قيمة أسهمه جميعاً من مئة قرش إلى مئة وخمسين أو أكثر أو أقل تبعاً لمقدار الأرباح والعكس بالعكس. أما أسهم التأسيس فيبيعها أصحابها بالأثمان التي تساعد على حالتها السوق وقد يبلغ ثمن السهم الواحد بين عشرة إلى خمسين ليرة تبعاً لشروط المصرف وموافقتها في توزيع أرباح طائفة عنى الأسهم التأسيسية ذات الامتياز.

وهذه الأسهم جميعاً عبارة عن ورقة مطبوع عليها نمرة السهم وقيسته الأصلية وبذيلها عدد من الكوبونات وهي مربعات محاطة بخروق تمكن من قطعها على حدة فيقطع فيها كل سنة واحد من هذه الكوبونات أو القطيعات يسلم إلى المصرف ويتقد حامل السهم قيمة القطيعة وهذه القيمة تكون إما خمسة بالئة أو أكثر تبعاً لقدر أرباح المصرف أو ما يعينه في إعلان سابق يدرجه في الجرائد ائحية مبنياً بميعاد قبول الكوبونات وأثمانها.

هذه أخص الطرق لإصدار أسهم المصارف فيمكن يقاس عليها كيفية إصدار أسهم باقي الشركات التجارية وسندات الحكومة التي تقتض بموجيها ما يسد به دينها والآن فننعد إلى كيفية المعامنة بالبضائع والأسهم وهي ما يأتي.

تفتح البورصة عند الساعة التاسعة صباحاً فيجتمع التجار والمضاربون في ردهما ولا يسمح بالدخول إلى حلقة المناذاة بالبيع أي عرض البضاعة أو الأسهم إلا لأناس مخصوصين هم الساسرة ووكلاؤهم.

فهؤلاء يكونون قبل أن يدخلوا حلقة المناذاة قد تلقوا أوامر مختلفة من عملائهم بعضها بالمشتري وبعضها بالبيع بأثمان يعرضونها لهم. فيدخلون ويبد كل واحد منهم مذكرة بشكل دفتر صغير فينادون ويعرضون ما لديهم من البضائع أو الأسهم مبينين أثمانها وذلك كأن ينادي أحدهم قائلاً: عندي خمسة مئة قنطار قطناً من الصنف الوسط والقنطار بعشرين ريالاً تسليم آذار، أو إني أشري مئة سهم من أسهم البنك العقاري بثلاث مئة فرنك السهم لميعاد شهرين فيجيبه آخر إني اشتريت ما تعرضه وآخر إني بعثت ما تطبه فيدون ما يبيع وما أشري في مفكرات يوقعها البائع والشاري.

فإذا كان البيع نقداً والبضاعة حاضرة يدفع الشاري الشئ ويستلم ما اشتراه. أما إذا كانت المعاملة إلى ميعاد فلا يطلب من الشاري إلا جزءاً من الشئ (بين ٥ و ٢٠ في المئة تبعاً لحالته من المالية)

كثيراً ما سمعت الناس يسألون عن معنى الغطية. وعندما اشتغلت النساء في مشري أسهم المعادن منذ زمن في بيروت سمعت إحداهن تقول أن فلانة غطت بإزارها أو ما مائل ذلك.

ولكي تعلم حقيقة معنى الغطية البورصية لا الوجهية نفرض أنك اشترت متين وخمسين قطار قطن مصري وهي أقل كمية يتعامل بها من صف القطن في البورصة. فإن كان عينك على ثقة منك فإنه قلنا يطلب منك أن تدفع مقدماً أكثر من عشرة قروش على كل قطار بصفة تأمين يأخذه لنفسه إذا هبطت الأسعار. وبما أن شراء القطن يكون لمواعيد مختلفة فإنك تعين الميعاد الذي تستلم فيه ما اشتريته فوصي عينك بأن يشتري لد هذه الكمية تسليم شباط أو أيار أو غير ذلك. فنقطة تسليم هنا وهمية لأنك لست تاجر قطن لتسلم وإنما المقصود أنك تباع ما اشتريته في ميعاد التسليم وتقضى أو تدفع فرق الشئ الذي يكون قد صعد حينئذٍ أو هبط. فإذا استمر السعر في صعود فلنك أن تباع وقتما تريد وتربح فرق الشئ. أما إذا هبط السعر فخسرت أكثر من عشرة قروش التي دفعتها تأميناً فيطلب منك العيل إما أن تغطي الخسارة فتدفع عشرة قروش أخرى وأما أنه يضطر إلى تصفية ما اشتراته لك فيبيعه لئلا تلحقه الخسارة شخصياً لأنه هو المسؤول لا أنت بالخسارة أمام من اشترى هو منه لحسابك.

في البورصة حزبان أحدهما يضارب على الصعود فيكثر من المشتري ليدفع الأثمان إلى الأعلى والآخر يضارب على التزول فيكثر من عرض البضائع والأسهم لنبيع لتكثر على طلبها وتكسد فهبط الأسعار ولكل من هذين الحزبين حيل وطرق للوصول إلى الغاية لا يمكن استيفاؤها هنا. غير أننا ننصح للمستعالمين بالبورصة أن لا يغتروا بالتغيرات التي تأتي من الخارج عن إقبال المواسم أو محنها لأن بعض المضاربين قد يشيع نشوب الحرب بين دولتين لتهدط الأسعار ويخرج من مركزه رابحاً.

وفي كثير من الأوقات يحتكر حزب الصعود صفقاً من البضاعة ولا سيما إذا صار قليلاً قرب انتهاء موسمه فيرفع أسعاره بقدر ما يتمكن من ذلك. وهذا هو السبب في بقاء أثمان بعض الأصناف مرتفعة على الرغم من قلة الطلب ووفرة وجود البضاعة. ويعلم ذلك من أثمان الماس الآن فيها فاحشة إلى ما يجب أن تكون عليه وما سبب ارتفاع ثمن القيراط من ١٥ ليرة إلى ٣٠ ليرة مؤخراً إلا تمكن جماعة من احكائه وخصوصاً بعد حرب البوير وتعطل معادن الماس زمناً.

فيرى من ذلك أن المضاربات كثيرة الأخطار ولو كانت مبنية على الحكمة والعقل والدرس واليقظة. فقد يكون المضارب على عزم بزيادة المقطوعية لصف من الأصناف مع عدم إقبال موسمه فيهجم على المشتري ظناً منه أن الربح متحتم ولكنه لا يثبت أن يرى الحالة بالعكس في كثير من الأوقات، إما لأسباب محلية توجب أعمال هذا الصف أو تقنيته وإما لعارض وقتي من مثل إشهار الحرب بين دولتين أو اعتصاب العمال أو لاتفاق حزب التزول على تقليل قيمته أو لقيام صف آخر مقامه وهنم جراً.

فإذا كان لا بد لشخص من المضاربة بالبورصة فأفضل نصيحة تقدمها له أن يتروى كثيراً قبل المشتري أو البيع فيدرس حالة السوق على خبيرين ثم إذا أمعده الحظ وكسب عليه أن يكفي بالربح القليل حالاً لأنه يكون قد وثق منه ثم يعاود الاتجار راجحاً بعزم جديد ومكسب يمكنه من تحمل الخسارة لو وقعت. فيمكنه إذ ذاك أن يخرج من مركزه مردداً قول القائل:

على أنني راضٍ بأن أحمل الهوى ... وأخرج منه لا علي ولا ليا

وقد دلّ الاختيار على أن البورصة لا يمكنها أن تباع جراحها إلا في من يهرون لطعهم بالغنى مع أن الغنى العاجل من البورصة لا يكون إلا بنسبة ٥ إلى ١٠٠ من حوادث الخراب وذلك لذهاب معظم أرباح المضاربين إلى جيوب السماسرة الذين ينشئون المنشار فيما كنون الأرباح صاعداً ونازلاً سواء ربح المضارب على أيديهم أو خسر، لأن نصيهم (وهو في الغالب عمولة قدرها ٥ في المئة) ثابت لا ريب فيه ما لم يفتروا فيجازفون بمأثم الخاص إرضاء لعلاتهم.

في البورصة طريقة لتأمين المضاربين على أموالهم بتحديد خسائرهم وهي أن يدفع المضارب مبلغاً معلوماً بصفة سوكارتاه ضد صعود الأسعار أو هبوطها تبعاً لإرادته. فإذا شاء المضاربة بالقطن مثلاً واختار طريق الصعود أي أن يكون شاربياً لا بائعاً فإنه يدفع نحو ربع ريال على كل قطار لمدة شهرين فيأمن الخسارة مهما هبط السعر ولكنه لا يربح إلا إذا ارتفع الثمن أثناء الشهرين فوق الربع ريال الذي دفعه بصفة تأمين له ضد الخسارة.

وهناك طرق وعمليات أخرى من مثل العملية المسماة ستلاج وهي الربح سواءً صعد الثمن أو هبط مقابل دفع أكثر من المبلغ المتقدم ذكره مما لا فائدة من الإسهاب في شرحه هنا لمئاته لما تقدم في الجوهر.

وخلاصة ما تنصح به القارئ أن يتبعد عن البورصة لأنها كثيرة الأخطار والنفقات والمهوم. وقد يوافق الاشتغال بها لمن كان عضواً في داخنها يقف كل يوم على بواطنها فيتمكن من التصفية حالاً. أما من كان بعيداً عنها فخسارته له ومعظم أرباحه لغيره. هذا فضلاً عما يحف بالبورصة من الدواعي والأسرار التي تغل الأيدي عن السعي وتقيد الهمة عن الظهور بمظهرها الحقيقي بخلافاً لحقل التجارة الواسع فإن فيه لذوي الذكاء والهمة والاستقامة مضرباً نائياً الأطراف يمكن من كان مستعداً من الإصلاح والفوز بالفلاح.

سر السعادة

كتب إحدى العقائل في مجلة مطالعات البيوت ما تعريبه: قال الفيلسوف فون كيل: سكن رغائبك الشديدة واجنس إلى مائدة الحينة كما يجلس الضيف الخشيم ولا تطنب صفاء من الطعام لا تراه مكتوباً في قائمة الألوان وهي كنزات فيها سر السعادة فإن حياة المرء تقضي في البحث عن السعادة وكم من أفراد قلائل يتيسر لهم الحصول عليها. يدخل المرء في سن العشرين مضار الحياة فيريد أن يؤسس له مقاماً بالرضى أو الغضب ويحاول أن يحوز أو يأخذ السر الراجعة في يانصيب الحياة وكل يظن نفسه على ثقة من ربح الشطر الأعظم لأن الأهواء في السعادة تختلف باختلاف الأشخاص حتى إذا بلغ الأربعين يعب ويشكو ويقول أنني أضعت سمي هباءً ولم أحظ بما أتطال إليه من السعادة

ولو بحث المرء في حياته بحثاً مجرداً عن الهوى لاعتترف في الغالب أنه يعتقد بالوهم قد تخلى عن ألوف من الحقائق الحسنة في الحياة السعيدة.

السعادة تنشأ اليوم بعد اليوم من لذات مختلفة مؤقتة وأفراح طفيفة رائقة تكون بنت ساعتها فالواجب إيجادها بمهنة وعناية على نحو ما تعمل النحلة العسل الجيد من عصارة الزهور المتباينة في الجودة فنقد كتب كارنو الكبير إلى ماكبورغ في ساعة يأس بالأبيات الآتية:

أيها السعادة أنت التي يتحرك بك كل شيء على الأرض

أيقل ندماًؤك على الكبرياء أم في القرى؟

في إسبارطة أم في سباريس؟ في المعسكر أم في المقبرة؟

أم أنك تؤثرين الغايات أم حفظ القطعان؟

أأنت في البذخ أم في الجد أم في الوهم؟

في الرغبة الحاصنة؟ وفي الخلاص من الأمراض؟

في الصداقة أو الحب أو في البغض؟

في السلام والمعرفة والفضيلة أو بين القبور؟

السعادة أيها الفاني الجزوع هي بنت الأمل

هي في فؤادنا وهي تنوح الطهر والعفاف

تقام ندورنا وتأتي غير منتظرة

هذه الهدية من الخالق هذه الجدوة السناوية

لا يتأتى تعريفها فهي خبز الروح

لا تعرف قيتها إلا بفقدها

والحق مع كازنو الكبير في جعله السعادة ابنة الوجدان المستريح وأما خاصة بالأمل ومن لم يقع له أن يحقق رغبة طلبت زمناً لا تنشأ عنها المسرة التي كانت تتوقع منها قبل الحصول عليها فأجل القصور وأزهاها للنسكى القصور التي بينها صاحبها في إسبانيا (أي الاشتغال بعالم الخيال) وإن ما يعد السعادة من طريقنا عدم قناعتنا بما يحصل في اليد ونفبط به فمعرفة السعادة هي حسن استعمال ما في الحياة من صالح وعدم مطالبتها بما لا تستطيع أن تمنحه.

ولربما رأينا زوجين تكدر عيشهما بعد اقترانهما لأن الزوجة نظرت إلى أرفع منها مقاماً فحسدته وأرادت بمال زوجها تنافسهن فنا هي إلا عشيّة أو ضحاها حتى تحل بعنها على الاحتيال للنعاشر يأتيها بما تريد لبذخها وإسرافها لترك سنن الاقتصاد والبساطة ويحاول أن يسعد امرأته أكثر من إسعاد الفطرة فنا هو إلا أن تسود الدنيا في عينيه وعينها ويضطر إلى الابتعاد عنها في طلب مظاهر الرفاهية وإذا رزقا أولاداً لا يكون منهم غير تنغيص العيش والشكوى عنى حين هم شمامة الأنس وريحانة النفس.

ليس لك من الحياة إلا ما أعددت وكثيراً ما نكون نحن العامين على شقائنا بأنفسنا فبقليل من العقل والخبرة كان في وسع هذه المرأة التي جعلت حياتها بيدها نجاهدة البؤس أن تكون بزواجها أسعد مما هي وكان لزوجها بشيء من المضاء والعنل وحسن السلوك بدلاً من أن يعيش في البؤس أن يصبح ذا مقام متناسب مع ذوقه وأصنه وأمانيه ولو صحت عزيمة تلك الأم عنى أن يكون لها حنان حقيقي لاستطاعت أن تحسن تربيتها أبنائها الذين هم عنة شقائها وربما جعلها.

الحياة دار ممر لا دار مقر لا يقف فيه السائر فالواجب التقدم على الدوام والاكتفاء بجني الزهور التي تصل يدنا إليها بسرعة على الطرق ونحن سعداء إذا لم نكن ممن أصابت أيديهم شوك وعوسج وإذا كنا ممن خانتنا السعادة فعلياً أن نجعل سرور غيرنا عنة لسرورنا أنفسنا وعليها أن نعهد إلى صالح الأعمال بدون جزاء وأن لا نبعد قتل عن خطة الواجب ننظر في مرآة ماضينا بدون ألم لوجداننا وعليها حتى تسعد أن ننظر إلى تحتنا لا إلى من فوقنا ولا نكدر عيشنا بخوف ما يحدث وربما لا يحدث فكم عذاب يا رباه يحدث لنا من الشرور التي لا تلحقنا تبعثها.

فالعقل يستع بما منك يداه وينظر إلى المستقبل باسمًا ويقول إن الحياة زائلة والأيام معدودة فلماذا لا أغتم السعادة الحاضرة. فإذا طرق البؤس بابي ذات يوم أتلقاه باحتشام رجل عرف الاستمتاع بالأيام الرائقة. وقليل في الناس اليوم من يرضون بما قسم لهم بل يطلبون أرقى منزلة مما هم فيها ويطمحون إلى أسباب ليست لهم ومن موجبات الأسف ما تسعه من شكاوي الناس الذين يشكون مما لا يشتكي منه وليس لبؤسهم أثر إلا في محبتهم أو في أطباعهم التي لا تشبع وهم أبداً في خيبة مهنا أعطوا ولو عقلوا لكانوا سبب سعادة لليائسين في الأمور التي يكون منها وينتحيون. قال فوستل دي كولانج المؤرخ إن الوساطة الوحيدة لسعادة الإنسان هو أن لا يفكر في نفسه بل يعمل لغيره وأن ينصرف بكنيته إلى عمل يعتقد نفعه للبشر لم يجدوا حتى الآن أسباباً توليهم السعادة والملاذ تعزف عنها النفس بسرعة والمطامع لا حد لها فالإخلاص هو الذي فيه الهناء والجزاء في ذاته.

إذا نقص شيء مما تريد ففكر فيمن لا يملك شيئاً في هذه الدنيا. ذهب أحد الفقراء لزيارة إحدى الأماكن المقدسة ولم يكن له حذاء فمشى على الأدغال والشوك يدمي رجليه والحصى يصرّهما وكان طول طريقه يشكو سوء طالعده وقلة ذات يده قال أنه لما وصل إلى المكان المقصود رأى زواراً أتعبوا حالاً منه رأى أعشى لا ساق له فقال بعد أن رأيت ما رأيت لم أعد أشكو من فقدي حذاء ألبسه في رجلي.

عمر الحيوانات

قليل في الناس من يعنون كم تعمر الحيوانات فالحصان يعيش خمساً وثلاثين سنة والبقر ثلاثين في الأكثر وينبع البغل سن الستين والكنب لا يصل إلا إلى الخامسة والعشرين والهر الخامسة عشرة ومثله العز والغنم وقد شوهد خنزير عمره عشرون سنة ولكن من النادر أن يقوا عليه بل يذبحونه والأرنب قد يعيش من ثماني إلى عشر سنين ويعيش الديك الهندي والدجاج البري (الفرغو) اثني عشرة سنة وذكر البط قد يبلغ الثلاثين وصغار الطير كالحياشة والعصفور وحمون لا تتجاوز الخامسة والعشرين أما الغراب فإنه كنا يقول عناء الحيوان يعمر طويلاً.

الجن السريع

إذا أردت أن تعمل من اللبن الحليب اجنّ في الحال بدون أن تعمل الروبة التي يطول أمرها متى مزجت باللبن فعليك باسعمال السكر البري تمتح به الإناء التنظيف الذي تضع فيه الحليب ثم تصب على الأثر اللبن الذي يجمد في الحال.

تدوير الساعات

أفضل وقت ليدور الإنسان ساعته أن يوقت لها وقتاً يربطها فيه كل يوم في الميعاد المعين ومن الناس من يختارون المساء ومنهم من يختارون الصباح لربطها والصباح أفضل إذ تكون الساعة في النهار معرضة للحركة أكثر من الليل فإذا كان عهدها بالرباط قريباً تظل بقوتها إلى آخر النهار ثم لا تزال تضعف في الليل إلى صباح اليوم التالي وبذلك تستقيم جريتها وحركتها.

طرد الجرذ والفيران

عنك بدهن ثقب الجرذ والفيران بزيت النعنع فإنها تكره رائحته كثيراً وذلك أسهل من استعمال السم لقتلها.

تدخين الحيوانات

يقولون أن الجمل والهجين يجهان دخان التبغ ومتى أغويا به يسهل أن يحمل الأثقال ويطلب منها كل صعب المنال وفي إفريقية الشمالية يعتمد من يقودون ذئب الحيوانات إلى استهوائتها بالتدخين فيخضعان لكل ما يراد منها ومتى صح العزم على قطع الأبعاد الشامعة بها يعطونها لفائف يدخنونها فيسيران أحسن سير ويكون مع قوادهما في الغالب قطعة من الخشب مثثة الشكل يجعل في طرفها المثقوب لفافة والخشبة في فم الحيوان فإذا شعلت اللفافة يحصر دخانها ويرسده من متخريده حتى ينتهي منه ويطبق الجمل والهجين عيونهما في خلال شرب الدخان شاعرين بنذة فائقة وأنس غريب.

بيوت الرمل

وقر في الأذهان أن البيوت التي بُني على الرمل لا بقاء لها حتى أصبح ذلك من أمثالهم. نشأ ذلك مما ورد في بعض الكتب المقدسة من المقارنة بين من يبني بيته على الرمل ومن

بينه على الصخر على أن آخر الآية أن الأمواج عنت على ذاك البناء فانهار ولو بنيت البيوت في رمل جاف متين لمال استطاعت صروف الأيام أن تقوضها وأهرام مصر أصدق دليل على ذلك لأنها بنيت على الرمل وهي لم تنزع منذ آلاف من السنين.

الهر في يابان

كتب أحد الباحثين أن الهر نقل من الهند إلى الصين ومن هذه إلى اليابان وهو في الصين معدود من الحيوانات الأهلية منذ زمن طويل. وفي كتب الصين القديمة وصف مطول لأخلاقه وهو هناك يتوفر على إبادة الفيران من الحقول التي تسطو على الزرع وفي سنة ١٢١٢ من التاريخ الياباني الموافقة لسنة ٥٥٢ للتاريخ المسيحي أخذوا في يابان يقدمون ضحايا للقنطريون وقد تبين له أن القنطريون دخل يابان يوم دخل المذهب البوذي وذلك لوقاية المخطوطات الصينية التي تبحث في الأخلاق من سطرات الفيران وكانت العادة قديماً أن تجعل القنطريون في المعابد وكثيراً ما كانوا يرسمون صورها في الخال التي تألفها الفيران.

حمل الأحمال

يحمل الناس أحمالهم في البلاد الجبلية على الجزء الأسفل من ظهورهم أو على أصلاهم وذلك بواسطة سير من جلد يجعنونه أو بقدم يربطونه على الجبين بحيث يتفعل بعمل أعصاب النقرة ومن النساء الفلاحات من يحملن جرار الماء على رؤوسهن وعلى العكس في مكان الجبال فإنهم يحملون الأحمال الثقيلة على رؤوسهم حتى تنزل قدة الحمل على الجسم ولكن إذا حمل هكذا في الصعود الشديد يتعرض للسقوط إلى الأمام. أما الأشياء الخفيفة أو المتوسطة فيتأني حملها بالذراع وعلى الورك والكف مباشرة أو بواسطة ميزان كنا هو الحال في الشرق الأقصى. ومن النادر أن يحمل الحمالون في البلاد السهنية على

ظهورهم وإذا فعلوا فإنهم يجعلون الحبل على الجزء العالي من الظهر ولا يقربونه من الصنب كما يفعل الجينيون. وهذا كله ناشئ من تركيب الأرض التي يعيش فيها المرء فترى ابن الجبال ربعة مجموعاً قصيراً ولذلك يحمل حملاً على صلبه حتى لا يتعرض لنسقوط وترى ابن السهل طويل القامة نحيف الجسم أهيف فيحمل الأثقال على جنبه أو يرفعه كثيراً غير متخوف عليها السقوط.

البوسنة والمهرسك

كان في البوسنة والمهرسك إلى سنة ١٩٠٦ نحو ثمانين ألف مزرعة وأرض زراعية لا يمكنها العامنون فيها من الفلاحين بل هي ملك للنسادة والأغوات يعطيهم الفلاح ثلث غلاتها وقد أخذت حكومة النمسا تباع تلك الأراضي من أربابها ولكن على طريقة بطيئة وألغت إكراه الأولاد على العمل بالطرق الأهلية وكان يقضى من قبل على كل ولد من سن السادسة إلى العشرين أن يسخر في الطرق واستعاضت عن ذلك بتكاليف وضعتها الولايتين مجلساً نيابياً مصغراً.

أخلاق الكوريين

عادات أهل كوريا من أغرب العادات فهم لا يعرفون الخياطة وبدلاً من أن يخطوا ألبسهم وثيابهم يصوغونها بصنع السبك وهم لا يعرفون الفرش بل ينعنون بدلاً منها ألواحاً من الورق المزيّن لطيفة الملمس وأكلهم بسيط للغاية ومادته الأصلية عبارة عن الأرز ولحم الخنزير ولحم الكلب وهم على قرب بلادهم من بلاد الصين لا يعرفون الشاي بته وأهم صناعات كوريا الورق وهو من أهم الصادرات إلى يابان ثم القيشاني والفخار يصنعونه بنوع غريب. أما وسائل النقل فهي على الفطرة الأصلية فتري

المركبات فيها قليلة جداً والكراسي التي تحمل هي خاصة بالأغنياء والمنورين ولقلة الخيل والحير استعاضوا عنها في حمل الأثقال بالثيران. والمرأة في كوريا محترمة للغاية ولكنه ينظر إليها كما ينظر للطفل وهي لا تسأل عن الجرائم التي تفتقرها.

بكور الطيور

جاء في إحدى الجلات الإفرنجية ما مثاله معرباً: الطيور أكثر منا بكوراً في العادة فهي التي تتولى إيقاظنا في ساعات لا تكاد تختلف ولا بأس بالوثوق بما فطير البرقش (الشرشور) يستيقظ في شهر حزيران ويأخذ بالتغريد نحو الساعة الثانية بعد نصف الليل وأبو زريق في الساعة الثانية ونصف والسنوى (سمانات) في الساعة الثانية والبنبل في الثالثة ونصف والشحرور يغرد منذ الساعة الثالثة ونصف إلى الساعة الرابعة والعنديل يبدأ في الرابعة ونصف وأبو زريق المستنقعات ربما تأخر تغريده إلى الخامسة بسبب برودة المكان الذي هو في الضباب المتكاثف عنده. والعصفور الدوري هو أكسل الطيور ينتبه من وكنه في الخامسة ونصف ولكنه يملأ الفضاء بتغريده. هذه ساعة الطيور ومن أراد الاعتماد عليها في أوقاته فعليه أن يكتن الغابات ويتتبع بأصوات هذه المخنوقات لا يخاف دركاً ولا يخشى والأجدر أن لا يجعل الطائر الذي يروق السبع بتغريده في قفص بل أن يبقى كما يريد من البيت وأكثر الطيور أنيسة للغاية وتحب مجتمع الناس إذا وقع في نفسها أنه لا تمس حريرتها. وأحسن الطرق لجعل صغار الطيور ويروضها في مأمن من محالب الحرارة وغيرها منه الحيوانات الغاصبة أن تضع حزمة من الشوك والعوسج في جذع الأشجار التي تناط بها الأعشاش والطيور المفردة تطربنا بنغماتها وهي من أعظم الأعوان على نجاح الزراعة.

الأعمار والعقلية

في مجلّة المطالعات البيئية ما تعريده: إن علاقة الأعمار بالأعمال الذهنية وتأثيرها هي من المسائل التي جرت المناقشة فيها كثيراً ولم تنجل عن نتيجة حتى اليوم. فمن المفيد من ثم أن تأتي على هذا الإحصاء الذي أورده أحد العلماء وقابل فيه بين أعمار زمرة من الرياضيين والشعراء والمصورين فأورد في مقدمين لايتز الذي عمره ٧٠ سنة وأولير ٧٦ سنة ولاكرانج ٧٧ ولابلاس ٧٨ وكوس ٧٨ وأفلاطون ٨٢ ونيوتن ٨٥ وأرخميدس ٧٥ وفيثاغورس ٩٠ وأورد من الشعراء والمصورين بندار الذي عاش ٨٠ سنة وسوفس ٩٠ وأربيدس ٧٥ وسيونيدس ٨٩ وشومير ٧١ وميشيل آنج ٩٠ والتيتين ٩٩ ونوردورت ٨٠ ولاندرو ٨٩ فعدل الحياة بموجب هذه الأرقام ٧٩ سنة لرجال العلم و ٨٥ لغيرهم.

فهذا الإحصاء يرضي القائلين بأن الأشغال العقلية لا تختصر حيل الأجل أما القائلون بعكسه فيقولون لك بالإحصاء أيضاً أن رفايل مات في سن ال ٣٧ سنة وموسه في ال ٤٧ وهيغزيب مورو في ال ٢٨ وشكسبير وبرون في سن الشباب وغيرهم ماتوا في زهرة العمر. وعليه فإن أحسن شرح لما تقدم أن يقال أن الارتقاء في الأمور العقلية في الأكثر نتيجة الصحة الجيدة وأن القوة الطبيعية هي التي تطيل الجل في حين أن هذه الأشغال العقلية نفسها تقصر أعمار ضعاف الأجسام وتقودهم في الأغلب إلى أشد حالات الاضطرابات الدماغية.

لم ير الباحثون حتى الآن في طبائع الجراد وأضراره بالمزروعات والأشجار بحيث يقضم الأخضر واليابس إلا أن تتوفر العناية على جمع بذوره قبل أن تفرخ وتبيض كنا يفعل المستعمرون في بلاد مراكش والجزائر حيث يكثر الجراد فيجرد كل خيرات البلاد معظم السنين.

دواء التهزيل

كثير من النساء من يريدون التخلص من السنن الذي يعالجهن قبل الأوان فتضيق به أنفاسهن وتتأذى به نفوسهن ليصبحن رشيقات ممشوقات. والذريعة إلى ذلك أن يعدن إلى تمرين عصني بسيط للغاية فإذا أحببت المرأة أن تصغر وركبها فعليها أن تضطجع على الأرض وترفس برجليها مرات، ثم تنهض وترفع ساقها ثانية لها بحيث تكون ساقها على صورة زاوية قائمة مع قامتها وتظل تعمل هذه الحركة بساقها خمس دقائق كل مرة. وفي الأسبوع التالي تقف منتصبه وتضع ذراعيها وراء ظهرها وتحمل خيّن ثقيلين تربطهما بطرفي حبل وفي الأسبوع الثالث تعد إلى حني ركبتيها وتعدّ الساق الثانية مدّاً مستطلاً وتضع يدها مفتحة على الأرض وذراعيها الآخر وراءها وفي الأسابيع التالية تحني بدون أن تثني ركبتيها بحيث تمس أطراف أصابعها رجليها ولا بأس من الاعتماد على كرسي في بداءة هذه الرياضة فقط ويستغنى عنه فيما بعد. ثم تقفز بعد ذلك مستندة إلى إطار (طارة) واسع وهو أحسن من الحبل الذي يقفز به. حتى إذا اكتست المرأة ثياب الزينة تنصب مستقيمة وتعدّ ذراعيها ثم تستشق الهواء بكل ما فيها من قوة ثلاث مرات وهذه الوسيلة يهزل جسمها بحول الله وقوته وتغدو رشيقة القوام — انتهى معرباً عن مجلة البيوت.